الفصل التاسع

التربية المسيحية فى قرونها الأولى

« يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون » .

وكانت النهاية التى دبرت ليسوع فى غدر وطيش ... ويهوذا يقبل ومعه قلة من الجند تابعين لرؤساء الكهنة والفريسيين .. ونفر عديد ممن عميت قلوبهم يحملون سيوفاً وعصياً ... جمع غفير ليضع يده على من نادى بالإخاء والمحبة فى وقت طغت فيه المادة ...

وأخذوا أسيرهم إلى قيافا رئيس الكهنة .. ومحاكمة سريعة أكد فيها الأسير موقفه وصلابته ، وصاح الجمع « إنه مستوجب الموت » . ثم استجوبه بيلاطس وسأل هذا الجمع « ماذا أفعل بملك اليهود » ؟ وصرخ القوم قائلين « اصلبه .. اصلبه » (١) .

وقد أوصى السيد المسيح تلاميذه أن يكونوا خلفاء له فى بث مبادئه ودعوة الناس إلى طاعته والولاء له .. ثم إن « الجماعة المسيحية فى أورشليم تكاثر عددها سريعاً ، وانضم تحت لوائها جمع غفير من اليهود الذين كانوا فى الشتات من قبل ومن مواطنى الجليل واليهودية ، ومن كهنة العبرانيين أنفسهم . وكانت تلك الجماعة فى أورشليم نواة الكنيسة المسيحية التى قدر لها فيما بعد أن تكون دوحة كبيرة تمتد أطرافها إلى كل أنحاء المعمورة » (٢) .

الاطار الزمانى والمكانى

روما تمد سلطانها ويرفرف نسرها على رقعة واسعة من الأرض امتدت من نهر الرين إلى شرق أوروبا ، إلى الفرات وإلى النيل ، ودانت لها أرض

---

(١) زكى شنودة : موسوعة تاريخ الأقباط – الجزء الاول ، ص : ٥٨ – ٥٩ .

(٢) حبيب سعيد : عشرون قرناً فى موكب التاريخ ، ص : ١ .

شمال أفريقيا ، وسار جنودها غزاة قساة على طرقات معبدة كلها توصل إلى روما . و على طرق الغزو صارت التجارة ، وصبت الشعوب المحكومة قمحها وذهبها فى مخازن روما ، وجاءها النفيس من أقاصى الأرض تتزين به الرومانيات حيث سالت أنهار الخمر فى وديان المجون الواسعة . روما الطاغية بقياصرتها و فسقها .. وبشر يصارعون الأسود ، ويصيح المتفرجون عندما تتفجر ينابيع الدم من أجساد المصارعين .. وأكاليل الغار .. وطرق مفروشة بالورود ، وحسناوات فاتنات فى انتظار قواد المعارك ممن ضموا للامبراطورية رقعة جديدة أو أخمدوا فتنة .

روما الوثنية ولها آلة حربية جبارة ، ولكنها ركعت للثقافة اليونانية وأسلمت لها القيادة ، فسادت حيث حكمت العقل فى كل حقائق الحياة ، وحيث افتتنت بالجمال والفن ، وجالت جولات خالدة فى الفلسفة ، وناقشت علاقة الفرد بالدولة ، والسياسة وأصول الحكم ، ولهذا صارت فى روما ثقافة فريدة جمعت بين حكمة الاغريق وتفكيرهم الحر ووسائلهم فى الإقناع والاقتناع ، وبين إنجازات الرومان فى المعمار وشق الطرقات والبراعة السياسية والإدارة الحازمة .

« ولكن تلك الثروات المادية عند الرومان ، والثقافة الذهنية عند اليونان قد أعوزها الخير الأسمى لأن انحلالا روحياً كان قد انساب إلى أنفس البشر . ذلك لأن الآلهة القديمة قد نزلت من فوق عروشها ، وخلت هياكل جوبيتر وأبولو من ذلك الأيمان الساذج الذى اعتصم به القوم يوماً ، كذلك خلت السماء لأولمبية من آلهتها التى حفلت بها قديماً فى أشكال من الجمال المثالى الرائع ، وأوضاع من القوة الخارقة . وأمست مجرد صور تتغنى بها الخيالات الشعرية ، ورغب العالم المثقف عن آلهة هوميروس ، واستورد آلهة من الخارج مثل أوزيس وأوزيريس وعبادة الفرس » (١) .

وقد ظل سواد الشعب مؤمناً بعباداته القديمة بما فيها من آلهة عديدة ، لكل

---

(١) حبيب سعيد . المرجع السابق ، ص : ح

شيء ولكل مناسبة ، بل إن أباطرة روما عملوا على تحويل هذه العبادات القديمة إلى عبادة الامبراطور نفسه ... وصارت تفد إليه أو إلى تماثيله جموع البشر يقبلون الأرض ويقدمون القرابين . وصار كهنة رسميون ، هم موظفون فى قطاع الدولة ويتقبلون المنح والعطايا ... والشعب فى سذاجته يقدم أو فى خوفه يعطى أو فى عجزه يسترضى الإله .

وإلى جانب هذا العالم الوثنى كانت اليهودية قد استقرت فى كثير من أرجاء الإمبراطورية الرومانية ، ومن بعض اليهود وخاصة جماعة الفريسيين نجد أكثر أتباع المسيح الأولين . ولعل أهم شخصية يهودية هو فيلو الإسكندرى .. الذى اعتقد أن الكتاب المقدس أحكم الكتب جميعاً ووحى إلهى صادق ، وأن موسى أكبر الحكماء والمعلمين إطلاقا ، ولكنه بطريق الاجتهاد والتأويل والتخريج وفق بين آراء الكتاب المقدس وبين أفضل الآراء والمذاهب فى الأفلاطونية والرواقية . وكان لهذا المزج والتوفيق أعمق الأثر فيما بعد فى نشوء الاصطلاحات اللاهوتية المسيحية ، وفى دراسة الكتاب المقدس » (١) .

التربية المسيحية :

أخذت التربية المسيحية أشكالها المحددة فى العصور الوسطى حوالى القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر . وقد ظهرت فى جانبها النظرى على يد القديس أوجستين وتلاميذه ، وكذلك على أيدى الكثيرين من جهابذة المسيحيين الذين شكلوا أنماط وطرائق المدرسة المسيحية وخاصة نظام القديس توماس الأكوينى .

والواضح أنه فى الزمن السابق للقديس أوجستين (وقت سيادة الامبراطورية الرومانية ثم سقوطها) عرف اهتمام الكنيسة بالاختلافات فى الرأى حول شخص السيد المسيح ، وحول الخطيئة والخلاص ، وغيرهما من المسائل الدينية على أن فضلا لا يمكن إغفاله فى هذا الوقت المبكر للمسيحية ، ذلك أن تعاليم المسيح المشحونة بالأخلاقيات وخاصة عن المساواة بين الناس فتحت أبواب

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص : ل .

التعليم أمام كل طفل مسيحى بغض النظر عن كيانه الاجتماعى ومستواه الاقتصادى وجنسه وسلالته .

وقد عاشت المدارس المسيحية الخاصة جنباً إلى جنب مع المدارس الرومانية والإغريقية ، ولكن الغلبة لم تكن فى صالح المسيحية ، فقد كان السواد الأعظم من الناس لامسيحيين . بل إن التربية المسيحية والديانة التى هدفت إلى خدمتها وقفت معارضة للخلق الرومانى والإغريقى ومثلهما الاجتماعية ، حيث اهتمت المثل الاغريقية والرومانية بالتعبير عن الذات وبتأكيد الحياة الدنيا . . وكان اهتمامها مؤسساً على (الإنسانية الطبيعية) فى إيمان بالقوى الطبيعية للانسان مما تشتمل عليه من إحساس بالعدالة والواجبات الدنيوية ، والشجاعة الظاهرة فى السلوك الإيجابى ، والتمتع بمباهج الحياة الدنيوية دون إفراط ، وتمجيد أكاليل الشرف والغار لمن يؤدون خدمات عامة ، والحق ، والولاء للدولة والبيت .

ارتكزت وتأسست دعائم المسيحية على قوى عليا وإيمان بمقدسات الجوانب الروحية عند الإنسان كالشجاعة فى تحمل الشر والصعاب ، والتواضع ، والصمت ورد الشر بصنع الخير ، والتخلى عن زخرف الدنيا ومتاعها ، والعظمة فى خدمة الآخرين ، وحب الجار .. بل وكل البشر .

ويهمنا أن نشير هنا إلى أن الديانة المسيحية قدمت للبشرية مفهوماً كريماً عن الفرد ، ولم يكن لهذا المفهوم أثر عاجل فى الشئون السياسية والتربوية ، ولكنه بدأ يؤثر تدريجياً فى القرون التالية لدعوة السيد المسيح . اختلفت النظرة فى المفهوم المسيحى عنها عند الإغريق والرومان ، فالديموقراطية الإغريقية كانت للأحرار والقانون الرومانى فرق بين السادة والعبيد . ولذلك فقد كانت دعوة جريئة المناداة بقيمة كل فرد بغض النظر عن قوميته وجنسه ومكانته الاجتماعية وكونه رجلا أو امرأة . واختلفت المسيحية بذلك عن اليهودية ، وإذا كان اليهود قد أصروا على التربية للجميع فانما كانوا يقصدون

جميع اليهود ، وإذا أصروا على أن يعرف كل فرد القانون فقد عنوا اليهود فى مجموعهم لأنهم يرونهم شعب الله المختار .

وثمة فرق آخر مرتبط بالعدالة . العدالة بالنسبة للإنسان وضعت عند الإغريق والرومان على أسس مدنية : أى وضعها الإنسان ذاته ، أما المسيحية فالعدالة ذات أصل دينى ولذلك لم تؤثر المسيحية على السياسة وبالتالى على التربية وانفصل الدين عن السياسة .

ويلوح أن معظم اهتمام المسيحية فى أطوارها الأولى كان متجهاً لإصلاح المجتمع الوثنى المختل الفاسد ، فقد هاجمت بشدة احتفالات المصارعة التى تسبح فى بحار من الدم ، كما عملت على تقييد السلاق وعلى منع عادة وأد الأطفال . ويمكن أن نقارن بين المسيحية والوثنية فى أن الأولى ارتضت التضحية وارتضت الثانية الشهوة ، كما أكدت الأولى العواطف الإنسانية بينما حبذت الثانية القسوة والفظاظة ، وإحسان وكرم فى المسيحية وتقتير وبخل فى الوثنية . ويذكر المؤرخون أن القرون الثلاث الأولى فى تاريخ المسيحية عرفت طهارة وقناعة ، ويرون أن صفحة المسيحية البيضاء هى التى يسرت تغلبها على الحياة الرومانية بفسادها ودنسها . ويطلق على العصور الأولى للمسيحية « عصور التهذيب المدرسى » إذ أقبل الناس على هذه الحياة النظيفة لا يبتغون من ورائها جاهاً أو منفعة أو نفوذاً أو شرفاً ، ولكنهم ارتضوها عن إيمان عميق واقتناع صادق .

وقد حاولت الديانة المسيحية الجمع بين القدسية المسيحية والكمال البشرى وكان هذا الكمال البشرى محتلا قلب طريقة الحياة المسيحية . وقد أثرت فكرة الكمال هذه ، بل هيمنت على التربية المسيحية فى قرونها الأولى ، كما كان لها شأن كبير على التربية الديرية فيما بعد ، لهذا فان القرون الأولى اتسمت بالاهتمام بالجانب الأخلاقى ، فرجل الدين هو المعلم ، أما المحتوى فهو الكتاب المقدس

بالجانب الأخلاقى ، فرجل الدين هو المعلم ، أما المحتوى فهو الكتاب المقدس

مع تعاليم ومثاليات المسيحية . وقد هدفت هذه التربية لا إلى نمو عقلى أو اجتماعى وإنما إلى نمو خلقى روحانى

إلى ذلك الوقت فى تاريخ البشرية ، وبالحد الذى تمدنا به معلوماتنا التاريخية عما دار فى العالم حتى بدأت المسيحية تنتشر ، يمكننا القول بأن أعاظم المعلمين مثل كونفوشيوس وبوذا وسقراط والمسيح كانوا ذوى اعتناق عميق . وما اعتنقوه لم يرتكز فقط على مجرد الإلمام بالمعرفة والقيم ، ولكنه تجاوز هذا إلى الوعى الشخصى بمعنى حياة البشر وعلاقاتها بالبيئة فى أرحب وأوسع معانيها

إن القارىء والدارس لحياة السيد المسيح يلمس بجلاء إيمانه العميق بأخوة البشر والمساواة بينهم . إيمان جسدته. وضخمته خبرته الهائلة بالبشر و بمشاكل الحياة .

عندما نتكلم — فى مثل هذا الكتاب — عن المعلمين العظام نسلط الأضواء على ما امتازوا به من عبقرية التعليم ، ومهاراتهم المدهشة فى تبسيط أعقد الأفكار والمذاهب — وقدراتهم الهائلة فى توصيل معتنقاتهم إلى سامعيهم . إذ تؤمن وتبسط وتوصل ، وتنجح فى هذا فانك تبنى صرحاً ضخماً من العقول والنفوس . ولكن هذا أمر جد عسير ، بل إن صعوبته البالغة فى أول الثلاثة وهو الإيمان ، ولو نجح فرد ما ، كما فعل نفر قليل جداً ، وحقق تلك العمليات الثلاثة فان النتيجة يمكن تلخيصها فى بساطة — أرجو ألا تطيح أو تمس جلالها وروعتها — فى الآتى :

- تتكون معان عند التلاميذ .
- يثار تفكيرهم .
- يقوى ويزداد حب استطلاعهم .
- تنبلج الابتكارية .. وغيرها من الامنيات العزيزات التى يسعى إليها كل مرب مخلص لمهنته .

وكان المسيح معلماً عظيما فى إيمانه وتبسيطه وتوصيله .

إن الدارس لحياة السيد المسيح سوف يجد أنه لم يتبع طريقة معينة دائماً

فى تعليمه ، ولم يختط خطة واحدة اتبعها ، ولكنه كان دائماً يتطلع إلى اللحظة أو الفرصة المناسبة ويستغلها فى براعة ، منتظراً انبثاق المشاكل ثم يعالجها بحكمة وحصافة . ويروى عنه أنه كان — دائماً — يبدأ تعليمه بما يشغل أذهان سامعيه كالقانون الموسوى ، والحكومة الرومانية ، والإحسان ، والضرائب ، والوصايا العشر ، والملكوت ، والعالم الدنيوى والعالم الآخر .

كان يأخذ الشك ويصل منه إلى اليقين ، كان يصل من الأثرة إلى الغيرية ، كان يحول العداوة إلى محبة وتواضع .. « من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك ، فاترك له الرداء أيضاً . ومن سخرك ميلا واحداً فاذهب معه اثنين . من سألك فأعطه . من أراد أن يقترض منك فلا ترده . سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم . باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيكم . وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم » .

وكان فى رده مفحماً خصومه حتى يخرسهم ... عندما أحضروا للمعلم امرأة شوهدت وهى تزنى ، وسألوه ماذا يقول ... فقال : « من كان منكم بلا خطية فليرمها أولا بحجر » وخرج الحاضرون الواحد تلو الآخر .

وقد حسم — ذات مرة — موضوعاً صعباً ، جاءه الفريسيون وقالوا له ليصطادوه بكلمة : « يا معلم قل لنا ، أيجوز أن نعطى جزية ليقصر أم لا ؟ » وعلم يسوع خبثهم وقال « لماذا تجربوننى يا مراؤون ؟ أرونى معاملة الجزية » فقدموا ديناراً ، فقال لهم : « لمن هذه الصورة والكتابة ؟ » قالوا له : لقيصر » فقال لهم : « أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .

ويرى ماخوستين (١) أن عظمة المسيح كمعلم تكمن فى المرونة التى استخدم بها طرائق التدريس والتعليم . ولعل من الخير عرض بعض الصفات المميزة لهذه الطرائق فى عمومياتها ، منها تأكده مما يقول ، والأصالة فى أقواله ،

(١) Makosteen, M. : The History and Philosophy of Education, p. 135.

والتلقائية التى ينميز بها موقفه ، والبساطة وعدم التعقيد والألفة التى يتحدث بها إلى سامعيه والمباشرة فى أقواله ، والاختصار المؤدى إلى الإفادة ، وتحركة من المحسوس إلى المعقول . ومن المعروف إلى غير المألوف والمجهول ، من الماضى إلى الحاضر ، ومن الحاضر إلى المستقبل ، حبه العظيم لمستمعيه ، تبصره فى دوافعهم ، وفوق كل هذا تحرره من الخوف فى قوله ما يؤمن به ، ورفضه المستمر لعقد المساومات للابتعاد قيد أنملة عما آمن به .. وخاصة فيما علمه عن الثراء والغنى ، وعن السلوك الدينى ، وعن النساء ، والأطفال ، وعن هدف الحياة .

وقد استخدم المسيح وسائل عدة لنشر تعاليمه على مستمعيه ، منها : الأمثلة والحكايات الرمزية ذات المغزى الأخلاقى . وكانت مشتقة من واقع الخبرة اليومية حتى يكون الأشخاص أو تكون الأشياء مألوفة للسامعين . وفى العهد الجديد بين ست وأربعين وثلاث وخمسين قصة أو أمثولة (الفرق العددى يتوقف على مدى تحديد المقصود بالمثال والحكاية الرمزية) .

ومن الوسائل أيضاً الحكم والأمثال ، وفى العهد القديم الكثير منها . وقد شاع استخدام الحكم والأمثال فى الشرق الأوسط منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا بين مختلف الأفراد وعلى كافة المستويات التعليمية . وتستخدم الأمثال والحكم بغزارة ، إذ أنها وسيلة سريعة ومفيدة لتوصيل مفهوم صعب إلى السامعين . وفى أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا العديد من هذه الأمثال والحكم .

واستخدم السيد المسيح من الوسائل الاستعارات والرمزيات والكنايات وخاصة عندما تكون الرسالة التى يريد إيصالها ذات عمق روحى شديد ، ويذكر فى هذا المضمار ما دار فى العشاء الأخير .. فلما اتكأ مع تلاميذه قال لهم : « شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم » ثم أخذ الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ ، وقال « خذوا ، كلوا هذا هو جسدى » وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا : « أشربوا منها كلكم . لأن هذا هو دمى الذى

للعهد الجديد الذى يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا » .

ومن الوسائل أيضاً ما يمكن أن نسميه بالأساطير وإن كان المسيح لم يستخدم هذا الأسلوب إلا لماماً لما يعتريه من اختلافات فى التفسير ، والأساطير معروفة منذ القدم فقد شاعت بين الصينيين والهنود ، كما أن أسطورة الكهف لأفلاطون ذائعة الصيت .. وقد حاول فيها — أو عن طريقها — التمييز بين المعرفة الحسية والمعرفة الإلهامية ، بين العالم المنظور المرئى والعالم الحقيقى . والغرض من استخدام الأساطير تبسيط مدرك صعب عميق إلى أساسياته وأصوله فى لغة رمزية يسهل على السامع أو القارىء فهمه .

وكما استخدم سقراط طريقة الحوار للكشف عن المغالطات والأخطاء ، ولدراسة الموضوع من جميع جوانبه، ولكى يتعلم الفرد بوعيه الداخلى الذى يتأتى بعد فحصه ودراسته المباشرة . كذلك استخدمت هذه الطريقة فى مدارس تعليم المسيحية وقد استمر استخدام الحوار فى العصور الوسطى ، وإن كان يؤخذ على هذه الطريقة أن النتائج ونهاية الحوار معدة سابقاً ، ولا يمكن تغييرها . وقد استخدم المسيح الحوار ، ولكن فى غير كثرة ، ولم يقصد منه طرح مناظرة بينه وبين السامعين ، ولكنه هدف إلى نقل حقائق معينة عن طريق أسئلة يوجهها ، ثم يجيب عنها .

وقد نجح السيد المسيح فى استخدام طريقة المناقشة ، وغالباً ما دارت المناقشات فى جو غير شكلى ، وفى إطار من الألفة والود ومشبع بروح التقبل لدى السامعين فى لحظة هادئة واتجاه إيجابى للاستماع . وقد دارت مناقشات على ربوة تل ، أو على شاطىء مجرى مائى ، أو تحت شجرة ظليلة ، أو فى أحد المنازل . وفى بعض هذه المناقشات عولجت مسائل سبق ذكرها فى أسلوب شكلى فى مجتمع كبير استمع إلى المعلم . وما أشبهها بحلقات المناقشة بعد الاستماع لمحاضرة عامة — فى شكلها الظاهرى .

على أن الغالبية من تعاليم المسيح ألقيت على صورة المحاضرات العامة على

سفح الجبل حيث اجتمع خلق غفير ، بعضهم فهم كل ما قيل وبعضهم وعى القليل ، ولكن ثمة فائدة نالت كل مستمع .

هذا ، وقد عرفت المسيحية فى هذه العصور أنواعاً مختلفة من المدارس :

١ — مدارس تعليم المبادىء المسيحية : وكانت تتخذ الكنائس مقراً لها ، وكان ينضم إلى هذه المدارس أبناء المسيحيين والراشدين من اليهود والوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية (١) . وكان التهذيب فى هذه المدارس تهذيباً عقلياً وخلقياً مع اهتمام واضح بالموسيقى ، فقد انتشر الترتيل بالمزامير ترتيلا موسيقياً وخاصة فى الشرق منذ سنوات المسيحية الأولى .

٢ — مدارس الحوار الدينى : وهى مدارس أرقى من المدارس السابقة ، وكان لابد للقساوسة المسيحيين وزعماء الكنيسة من الإلمام بانتاج العقل اليونانى حتى يستطيعوا النقاش مع مدارس الفكر اليونانية . ولعبت الإسكندرية دوراً بالغ الأهمية على يد الفيلسوف (بانتينوس) الذى خرج على تعاليم الرواقيين واعتنق المسيحية وأصبح رئيساً لمدرسة الإسكندرية حيث وضع الفلسفة والخطابة فى خدمة الكنيسة . ثم تبعه كلمنت وأورجان ، وعلى يديهما تشكلت تعاليم المسيحية الأولى .

ونشأت مدارس الكاتدرائية متبعة نظام المدارس الحوارية ، ولكن بعد أن تحدد نظامها وأصبحت مراكز يدرس فيها رجال الدين ، بل كانت تتوقف ترقياتهم فى وظائفهم على ما يدرسونه فى هذه المدارس . ومع نمو المسيحية فى أوروبا نمت الهيئات الكنسية وازدادت الحاجة لرجال الدين ، وبالتالى اتسعت هذه المدارس وتوطدت مكانتها بعد أن سقطت ألوية الوثنيين وإعلان المسيحية ديناً رسمياً فى روما .

---

(١) مترو المرجع الاسبق ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

مدخل

نترك العصور القديمة مع مسيرة التاريخ الطويلة ..

وقد انتشرت المسيحية مع مرور السنين واضعة نهاية للكثير من العبادات الوثنية وخاصة فى أوروبا .. غير أن إنتاج العقل البشرى لم يكن نشطاً ، وكأنما أتخمته الجرعات الدسمة من فلاسفة الإغريق وجامعة الإسكندرية والمراكز العلمية بالشرق الأوسط .

ودق التاريخ أبواب العصور الوسطى . ولعل أول من استخدم تعبير (العصور الوسطى) هم المؤرخون فى القرن السابع عشر ؛ ليعبروا عن فترة فى عمر البشرية تمتد من سقوط الإمبراطورية الرومانية عام ٤٧٦ إلى حوالى ١٥٠٠ ميلادية حيث بدأت حركة النهضة الأوروبية . وفى رأى بعض المؤرخين أن العصور الوسطى بدأت عندما أغلق الامبراطور جستنيان أكاديميات آثينا عام ٥٢٩ م. ويرى البعض أن نهاية العصور الوسطى حصلت باكتشاف أمريكا عام ١٤٩٢ م.

هى فترة طويلة وفيها اختلفت الآراء حول بدايتها ونهايتها —عرفت البشرية فيها يقظة ووعياً فى الشرق الأوسط ، وسباتاً أحياناً ؛ وشبه صحوة أحياناً أخرى فى أوروبا .

فى هذه الفترة انبلج نور الإسلام وغمر الأرض شرقاً وغرباً ، وأقام صرحاً ثقافياً عملاقاً ، بل كان المنادى بصوت عال أيقظ العالم الغربى الذى تلفت حواليه باحثاً عن الزاد الفكرى والعلمى يسد به جوعاً أضناه مئات السنين ، فوجد مائدة إسلامية تزخر بطيب الثمر من الطب والكيمياء والفيزياء، والفلسفة والأدب والرياضة .. الخ .

وأقامت أوروبا جامعات كانت ركيزتها ما خلفه المسلمون الذين أخذوا من علم وفلسفة الإغريق والفرس والهنود والمصريين ... وأضافوا إليها بعد تطويرها وتحسينها حتى تلقفها الأوروبيون .. وكانت النهضة ثم التقدم السريع فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ثم قفزة فى النصف الأول من القرن العشرين ، ثم الانطلاقة الهائلة فى المجتمع الغربى فى النصف الثانى من هذا القرن

* * *

الفصل العاشر

التربية الإسلامية

من واد غير ذى زرع بدأ الإسلام يغمر الكون هادياً العالمين . والصحراء أرض حل وترحال وتجوبها قبائل بدوية ، والبعض يستقر حيث تصح الحياة وجبال ووديان ورمال صفراء وكثبان وخيام وجمال وسماء قلما عرفت السحب . وكثيراً ما أريقت الدماء على الرمال ، فالقبائل تتناحر ، وتتفاخر بالأنساب ، وتمدح وتهجو . .

وفى غمار التقاليد الجامدة المتينة عاش سكان شبه الجزيرة العربية ، وكانت ذخيرتهم العقلية ما يتوارثونه جيلا بعد جيل ، ويقول دى بور De Boer(١) ولم تكن عندهم الثمرات التى يتوصل إليها بالاجتهاد والتضامن الاجتماعى ، ولا الآثار الفنية الجميلة التى يوئتيها الفراغ والترف ، ولم يصلوا فى التمدن إلى مرتبة أعلى من ذلك إلا بأطراف تلك الصحراء ، فى دول تكونت بعض الشىء ، كثيراً ما كانت تتعرض لغارات يشنها البدو .. وهكذا كانت الحال فى الجنوب حيث امتد الأجل بدولة ماوك سبأ القديمة إلى العصر المسيحى ، وتحت سيادة الأحباش أو الفرس .

وفى الغرب كنت تقع مكة والمدينة (يثرب) على طريق تجارى قديم ، وكانت مكة بوجه خاص — نظراً لسوقها ولوقوعها فى كنف البيت الحرام — مركزاً لحركة تجارية قوية . أما فى الشمال فقد نشأت مملكتان من العرب كانت لهما بعض السيادة ، هما : مملكة اللخميين فى الحيرة ، على تخوم الفرس ، ومملكة الغساسنة فى الشام على تخوم الروم » .

حقاً لم تكون شبه الجزيرة وحدة سياسية ، ولكن كانت هناك وحدة اللغة

---

(١) دى بور (ترجمة محمد عبد الهادى أبوريدة) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ص ٣ — ٤

والاهتمام بالشعر وقوافيه وأوزانه ، حتى إن العرب أنزلوا الشعراء بينهم منزلة حسنة . وقد تخيرت القبائل أرجح رجالاتها عقلا وأعلى حكمة ليكونوا شيوخاً فيها يحكمون بين الناس . وترابطت القبائل فيما بينها بروابط التجارة والأسواق الأدبية ، حتى إنه يقال إن قصائد الشعراء الساحرة كانت تنزل فى أول الأمر منزلة وحى الكهان . ثم كانت القبائل ترفع السيوف بعد سلام سعياً وراء خير أورداً لإهانة .

ثم جاء الإسلام ، ونزلت أول آية على محمد بن عبد الله وهو يتعبد فى غار حراء : « إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . ثم بدأ الإسلام ينتشر فى ربوع شبه الجزيرة ، وتحمل عليه السلام وصحابته الأذى والألم حتى كتب الله لهم نصراً مبيناً .

واستطاع النبى (صلى الله عليه وسلم) ومن بعده الخلفاء الراشدون .. « أن يبعثوا فى نفوس أبناء الصحراء الأحرار ، وفى نفوس من هم أكثر منهم تحضراً من أهل البلاد الواقعة فى الأطراف روح الاتحاد فى العمل ، وإلى هذا البعث يرجع الفضل فى المكانة التى يتبوؤها الإسلام كدين عالمى . ولقد صدق الله المسلمين وعده بالنصر ، وكأنما كان تأييده لهم إجابة لندائهم عند لقاء الأعداء : « الله أكبر » .. ثم فتح العرب بلاد فارس كلها ، وانتزعوا من الإمبراطورية الرومانية الشرقية أحسن ولايتين فيها ؛ وهما : الشام ومصر ؛

وخلف النبى عليه السلام الخلفاء الراشدون (١١ — ٤٠ هـ — ٦٣٢-٦٦١م) أبو بكر وعمر وعثمان وعلى . ثم غلب على ، وفاز معاوية بن أبى سفيان والى الشام على ولدى على بن أبى طالب . وفرت فلولهما باذرة بذور حزب الشيعة. وأسس معاوية الدولة الأموية متخذاً عاصمته دمشق (٤٠ — ١٣٢ هـ — ٦٦١ — ٧٥٠ م) . وإبان حكم الأمويين رفرفت ألوية المسلمين على رقعة من الأرض تمتد من المحيط الأطلسى غرباً إلى ما وراء حدود الهند والتركستان

(١) المرجع السابق . ص : ٥

شرقاً ، ثم إلى بلاد القوقاز وأسوار القسطنطينية شمالا .. وسادت اللغة العربية فأصبحت لغة الدين والدولة والشعر والعلم . وأصبح تولى المناصب العليا من حق العرب ؛ فهم يديرون الدولة ويتولون قيادات الجيش ، أما حملة العلم والفن فكان غالبيتهم من غير العرب . وإبان الدولة الأموية ازدهرت البصرة والكوفة كمركزين للثقافة حيث كان يلتقى فيها عرب وفرس ونصارى ومسلمون ويهود ومجوس . ولعل هذه اللقاءات بين أقوام من شعوب مختلفة ولغات متعددة وثقافات متنوعة كانت بداية لعصر من التقدم العلمى فى وقت كانت فيه أوروبا تغط فى نوم من الجهالة يزادد عمقاً سنة بعد أخرى .

وخلفت دولة بنى أمية الدولة العباسية (١٣٢ — ٦٥٦ هـ — ٧٥٠ — ١٢٥٨ م) ، وأطلق على فترات منها بالعصور الذهبية . وقد بنى المنصور ثانى خلفاء العباسيين ، بغداد عام ١٤٥ هـ — ٧٦٢ م ، وخلفه هارون الرشيد ثم المأمون ... وتألقت بغداد وأصبحت كعبة العلم والفن والأدب ، وصبت فيها أنهار من الذهب من أرجاء الإمبراطورية المترامية ، ولم يبخل الخلفاء على النهضة العلمية فقدموا للبشرية ما حقق لها التقدم إلى الأمام مستغلة التراث القديم ، ومجددة ومبتكرة ومهيئة للمستقبل .

ثم بدأ الوهن يتطرق إلى الدولة المتماسكة ، فاستقلت بعض أجزائها ، فكانت هناك دولة بنى أمية فى الأندلس ، ودولتا الطولونيون والفاطميين فى مصر ، وأقام بنو حمدان ملكاً فى الشام والجزيرة ، كما قام الظاهريون فى المشرق . وبدأت مدن أخرى تشع الثقافة ، ففى الأندلس قامت مراكز علمية ، وفى القاهرة أنشئت جامعة باقية إلى اليوم : الأزهر .

التربية والتعليم

عاش العرب فى الجاهلية خاضعين للخرافات والأوهام ، عبدوا الأصنام ووكلوا إليها كل أمورهم . كما لجأوا إلى الكهانة والعرافة لفض نزاعاتهم .

ويلوح أن القراءة لم تكن منتشرة فى بلاد العرب قبل ظهور الإسلام . ولذلك نجد القرآن الكريم قد حث الناس على القراءة وطلب العلم ، فقد نوه

فى مواطن كثيرة بمنزلة العلماء الرفعية وأهمية العلم وطلبه ، فيقول الله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وقال تعالى « وقل رب زدنى علماً » . ومن أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » ، وقوله « اطلبوا العلم ولو فى الصين » ، وقوله أيضاً « لا خير فيمن كان من أمتى ليس بعالم ولا متعلم » وقوله كذلك « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد » .

وقد خرج صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين : أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه ، وفى الثانى جماعة يعلمون الناس فقال : « أما هؤلاء فيسألون الله فان شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما بعثت معلماً » ، ثم عدل إليهم وجلس معهم .

وكان رسول الله عليه السلام يشيد دواماً بفضل المعلمين ومنزلة العلماء ومكانة العلم فهو قوام الدنيا وقوام الدين حيث قال « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم » وقال يضاً : « الناس رجلان : عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما » . وقال صلى الله أعليه وسلم : « لموت قبيلة أيسر من موت عالم » . وقال : « فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب » . وقال عليه السلام : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » . وقال : « تعلموا العلم فان العلم لله حسنة ودراسته تسبيح والبحث عنه جهاد وطلبه عبادة وتعليمه صدقة وبذله لأهله قربة » (١) .

كما أن الإسلام فى حرصه على التعليم لم يفرق بين الأبناء والبنات ، قال النبى عليه الصلاة والسلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وروى أن الرسول عليه السلام كان يطلق سراح الأسير المتعلم من الكفار إذا علم عشرة من المسلمين الأميين القراءة والكتابة . ويذكر عن الرسول عليه السلام

---

(١) جمعها محمد عطيه الابراشى : التربية الاسلامية . ص ٣٦ - ٣٧ .

أنه حث بعض أصحابه على تعلم لغة إلى جانب العربية . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لكميل : « يا كميل العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه . والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق » . وقال أيضاً : « العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد » .

ومن أقوال الحكماء : (٢)

إذا مات العالم بكاه الحوت فى الماء والطير فى الهواء ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره .

وقيل « كن عالماً أو متعلماً أو مستعلماً ولا تكن جاهلا فتهلك » .

وقيل : تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقه ، وبذله لأهله قربة وهو الأنيس فى الوحدة والصاحب فى الخلوة والدليل على الدين والمصبر على السراء والضراء ... والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم أدلة فى الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة فى خلتهم . وبأجنحتها تمسحهم لأن العلم حياة القلوب ونور الأبصار ، به يبلغ الإنسان منازل الأبرار وبه يطاع الله عز وجل وبه يعبد وبه يوعد وبه يوحد وبه يمجد وبه توصل الأرحام ويلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء » .

وقال الأحنف : « كل عز لم يؤيد بعلم فالى ذل يصير » .

وقال الزبير بن أبى بكر : « كتب لى أبى بالعراق: عليك بالعلم فانك إن افتقرت كان لك مالا ، وإن استغنيت كان لك جمالا » .

وقال ابن الحكم : « كنت عند مالك أقرأ عليه العلم ، فدخل الظهر ،

---

(١) المرجع السابق وأحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية . ص ٢٨٧ . جمعت من مصادر منها : ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٢٦٥ - ابن قتيبة : عيون الاخبار ٢ : ١٢٠ - الاصفهانى : محاضرات الادباء ١ : ١٦ - الغزالى : الاحياء ١ : ٦ - ٧ - الادب الصغير ص ٢٢ من وسائل البلغا.

فجمعت الكتب لأصلى فقال : يا هذا ما الذى قمت إليه بأفضل مما أنت فيه»

وقيل لبعض الحكماء : « أى شيء تقتنى ؟ » قال : « الأشياء التى إذا غرقت سفينتك سبحت معك » . يعنى العلم .

وقال ابن المقفع : « العلم زين لصاحبه فى الرخاء ومنجاة له فى الشدة » .

وسئل عبد الله بن مبارك : « لو أن الله أوصى إليك : تموت العشية ، فماذا تصنع اليوم ؟ » فقال : « أقوم وأطلب العلم » .

وإذا كان العلم والتعليم قد حظى فى سنى الإسلام المتقدمة بالمكانة الرفيعة على يد النبى عليه السلام وصحابته وخلفائه ، فانه قد وجد عند خلفاء الأمويين والعباسيين استجابة لم تقتصر آثارها على المسلمين فحسب ، بل كانت لها أصداء عميقة الأثر فى العالم فيما بعد .

على أن التعليم فى هذا الوقت المبكر من تاريخ الإسلام قد اهتم قبل كل شيء بالقرآن ثم بالقراءة والكتابة ، ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أرسل إلى الولاة من المسلمين قائلا : « أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر » . وباتساع الأمصار الإسلامية وانتشارها بدأت تباشير نهضة تعليمية دعامتها فى بداية الأمر العلوم الدينية مثل القرآن والتفسير ورواية الحديث ثم استنباط الأحكام الفكرية والفتاوى الشرعية . ويغلب على الظن أن بداية الاهتمام بالعلوم العقلية أو الكونية كالطب والفلسفة والرياضيات كان فى عصر العباسيين ، فلم يعرف عن الأمويين اهتمام بمثل هذه العلوم ، إذ يذكر ابن خلدون فى مقدمته عن أصناف العلوم التى كان المسلمون يتناولونها فى مجالسهم العملية فى صدر الإسلام وزمن حكم بنى أمية ، فيقول : إنهم اهتموا بالعلوم النقلية ، وهى التى تتصل بالقرآن الكريم وهى التفسير والقراءات والحديث وأصول الفقه ، كما اهتموا بالعلوم اللسانية كعلم اللغة وعلم النحو وعلم البيان والأدب .

ويلوح أن العلوم العقلية كانت قليلة أيام الأمويين ، وكانت العلوم النقلية نواتها القرآن والحديث ، فمنها يستنبط الفقه ولأجلها يروى الشعر وتبحث

مسائل النحو . أما فى العصر العباسى فقد وجدت نواة أخرى تجمعت حولها العلوم الدنيوية ، وهى نواة الطب .. « فقد أسس النساطرة ، بمعاونة اليهود مدرسة للطب بجنديسابور ، وأيدهم الخلفاء العباسيون ، وقد كانت هذه المدرسة الطبية وارثة الطب اليونانى والفلسفة اليونانية فى الشرق ، وحول هذه الدراسة الطبية تكونت دراسة الطبيعة والكيمياء والهيئة ، بل والمنطق والإلهيات ، وكانت الثقافة الطبية تتطلب كل هذه الفروع ، وبرنامجها يسع كل هذه الأشياء ، كما نلاحظ هذا حتى فى فلاسفة المسلمين أمثال الفارابى وابن سينا ، فكلاهما طبيب فيلسوف .. من أجل هذا نرى نوعين من الدراسة فى هذا العصر : دراسة دينية حول القرآن والحديث ، ودراسة دنيوية حول الطب ، ولكل نوع مميزات خاصة ومنهج فى البحث خاص ، وإن أثر كل منهما فى الآخر وتأثر به (١) » .

ويعلل ابن خلدون ازدهار العلم فى العصر العباسى بما تمتع به العباسيون من سعة فى الدخل وترف أعطى الفرصة للجودة والكثرة ، فبعد أن كفى القوم أنفسهم من الضروريات وما زال لديهم فائض من الرزق اتجهوا إلى التجديد والتحسين فى صناعاتهم ، وإلى الإغداق على محبى العلم والعلماء . ولعل من أسباب التقدم العلمى فى العصر العباسى عنه أيام الأمويين والخلفاء الراشدين — أن الدولة الإسلامية تمكن لها فى الأرض استقرار متخذة بغداد عاصمة ، وهى متاخمة لبلاد فارس ذات الحضارة القديمة العتيدة . وقد نزح إليها وعاش فيها فرس شجعهم الخلفاء على العلم ، بل إن الولاة المسلمين فى الأرض التى كانت مهداً للاحتلال الرومانى لم يبخلوا على العلماء بمنحهم ، بل كان لهؤلاء الحرية التى يعشقها محب العلم . وقيل إن ضعف معدة أبى جعفر المنصور جعله يهتم كثيراً بالطب والبحث فيه فاستدعى أطباء مختلفين فى مللهم ونحلهم ، كما اهتم بالتنجيم لاعتقاده أن هناك صلة بين حركات النجوم وما يدور على الأرض (٢) .

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام - الجزء الثانى . ص ١١ - ١٢

(٢) المرجع السابق ص : ١٥

وقد أثر انتشار العلوم العقلية على المجتمع الإسلامى والتربيه فية من زاويتين

١ — طريقة البحث : فعلماء العلوم العقلية اعتمدوا على الرواية وصحة السند ، فهم يجمعون ما قاله السابقون ، وقد يرجحون قولا على قول ، ويكاد يقتصر عملهم على التحقق من صحة النقل ، ولم يحكموا كثيراً مقياس العقل ، بل كانوا لا يقبلون نقداً ولا يطبقون محاجة بالمنطق ، أما أصحاب العلوم العقلية من دارسى الطب والرياضة والطبيعة فقد ركنوا إلى معقولية الحقائق وامتحانها. متخذين إما سبيل المنطق وإما التجريب العملى . فهم يحكمون بالصواب أو الخطأ بعد فحص وتمحيص لا استناداً على اسم القائل أو المصدر . ولعل اختلاف طريقة البحث لم تقتصر على مجرد أسلوب الوصول إلى الحقيقة ، بل تعدتها إلى عداوة بين النقليين والعقليين ، فالنقليون — وأظهر من يمثلهم علماء الحديث — يتهمون العقليين بالزندقة والإلحاد ؛ والعقليون — وأظهر من يمثلهم علماء الكلام — يتهمون النقليين بالجمود والتزمت .

٢ — مع اتساع العلوم العقلية فى العصر العباسى وتشجيع الخلفاء للعلم والمتعلمين لم يعد العلم قاصراً على الأمور التى احتكرها رجال الدين . فطرق أبواب العلم — وخاصة فى العلوم العقلية التى تكونت حول الطب — أفراد كانت صلاتهم بالدين والتعمق فيه خفيفة . وجذبت هذه العلوم العقليـة الكثيرين الذين عملوا على التنقيب فى أعماق الثقافات المختلفة والتمتع بكنوزها . وكانت أسباب الاستقرار السياسى والرغد الاقتصادى مهيئة لهم كل الفرص الممكنة .

ومما هو جدير بالذكر أن اتساع صناعة الورق فى ذلك الوقت كانت من العوامل التى آزرت هذه النهضة العلمية (١) . فكان العرب قبل الإسلام وفى صدره يكتبون على الرق،وهوجلد جف ثم رق ، وفى اللخاف وهى حجارة بيض رقاق وكذلك فى عسب النخل،وهو الجريد الذى لا خوص عليه،ويكتبون أيضاً فى عظم أكتاف الإبل والغنم ، كما استخدم العرب القرطاس وهو ورق مصنوع من بردى مصر وانتشر فى ربوع الدولة الإسلامية المترامية . كما نشأت

(١) الموجع السابق ص: ٢٠ — ٢١

صناعة « الوراقة » التى كان أصحابها يقومون بنسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها وقد ساعدت على انتشار الثقافة .

وإذا كانت المصادر التاريخية تحدثنا عن حرية عند العلماء ، فهى أيضاً تلقى أضواء كثيرة على اتجاهات القصور نحو توجيه بعض العلوم نقلية وعقلية. فقد أثرت الهيئات الحاكمة على العلم تأثيراً كبيراً ، ولعل الموقف السياسى الداخلى كان يدفع الحكام إلى سلوك معين . فقد قامت الدولة العباسية على أنقاض دولة بنى أمية وكانت لها عظمة ليس من السهل إخلاء عقول الناس منها ، كما أن هناك الشيعة الذين يرون أن أحق الناس بالخلافة هم آل أبى طالب وأن آل العباس اغتصبوا الخلافة منهم . هذا إلى جانب مذاهب دينية فى الظاهر وسياسة فى الباطن كالخوارج والمرجئة .

ولهذا فقد تلون تدوين التاريخ بما يرضى السلطات الحاكمة ، كما اندفع الشعراء يتغنون رضا الخليفة بقصائد طويلة فى مديحه . حتى فى الفقه عمل بعض الفقهاء على التوسع فى الحيل الشرعية إرضاء لمطالب الخلفاء . وفى النحو واللغة تدخل العباسيون أيضاً . فعند ما احتدم النزاع بين البصريين والكوفيين ، أخذ العباسيون جانب الكوفيين .

على أن بعض العلوم لم يكن لها اتصال بالسياسة ، فلم تتأثر بها كعلوم الطب والرياضة والمنطق والطبيعة . ولا يضع المتكلمون عن هذا العصر مبدأ ثابتاً يصح على كل الكتاب والشعراء والعلماء ، فاذا كان السواد الأكبر من الأدباء والشعراء قد أطنب فى مديح الخلفاء العباسيين وذم الأمويين ، فانه كان هناك أيضاً من ذم العباسيين فى وقتهم وهجاهم ، كما أبدى بعض مؤرخيهم المعاصرين آراءهم فى حرية وإن كانت لا تطابق هوى فى نفوس الخلفاء العباسيين . بل إن استعراضاً لكتاب « مقالات الإسلاميين » لأبى الحسن الأشعرى ، وكتاب « الملل والنحل » للشهرستانى ، وكتاب « الفرق بين الفرق » للبغدادى ترينا آراء ومذاهب وأقوالا فى الإلهيات تسترعى الوقوف عندها لما فيها من جرأة فى آراء ومذاهب وأقولا فى الإلهيات تسترعى الوقوف عندها لما فيها من جرأة فى الرأى. بل إن الحرية فى مزج فلسفة اليونان بالإسلام تسترعى الإعجاب لما

تمتع به العلماء العقليون من حق فى إبداء الرأى . ويذكر أن المعتزلة كانوا ينقدون فى أحاديثهم وكتاباتهم أحداث التاريخ فى صدر الإسلام نقداً مريراً وصريحاً .

ومع ذلك فهناك شواهد تاريخية تثبت اضطهاد المخالفين فى الرأى ، بل قلما مات وزير إلا ميتة قتل وغيلة ، وقد طورد العلماء من المعتزلة واضطهدوا وعذبوا ، مما يجعلنا لا نستطيع أن نعطى حكماً قاطعاً على مدى الحرية فى الكلمة فى العصر العباسى .

ويلخص الأستاذ أحمد أمين الموقف فى نقطتين :

أولا : إن الخلفاء العباسيين الأولين — وبخاصة المنصور — وضعوا أسساً للدولة أهمها تنظيم الخلافة فى نفوس الناس ، وصبغ الخلافة صبغة دينية فيصبح الخليفة حامياً للدين وظل الله فى أرضه ، وفى يده كل سلطة . ولهذا فلم يسمح الخلفاء بما يؤدى إلى إضعاف شأن الملك . ويذكر عن المنصور قوله : « الملوك تحتمل كل شىء إلا ثلاث خلال : إفشاء السر ، والتعرض للحرم ، والقدح فى الملك » .

ثانياً : إن حرية الرأى ومداها كانت متصلة اتصالا كبيراً بمزاج الخليفة ، فيذكر عن المنصور أنه كان يظن الظنون فى كل ما يتصل بالملك والحكم ، ولكنه كان واسع الصدر فى كل ما يتصل بالعلوم . ورأى بعض الخلفاء فى العلوم العقلية زندقة ؛ فحارب واضطهد المشتغلين بها مسلمين كانوا أو نصارى أو يهوداً ، وقربوا إليهم أهل الحديث كما فعل الخليفة المتوكل .

والذى لا شك فيه باجماع المؤرخين أن حركة الترجمة بلغت ذروتها فى العصر العباسى ، كما أن التقدم العلمى سار بخطى سريعة ومطردة . وقد عمد بعض المؤرخين الغربيين أن يغضوا من قدر العرب وإنتاجهم فى عالم الفكر ، فادعوا أن ما جاء به العرب لم يكن فيه شىء مبتكر ، ولم يكن العرب إلا مقلدين . وإذا سلمنا بأنه لا يكون ابتكار مخلوق من العدم فحرى بنا أن ننظر إلى مجهودات العرب نظرة عادلة. فلم يكتف العرب بنقل الفلسفة القديمة من

اليونانية إلى العربية فقط ، بل درسوا هذه الفلسفة وشرحوها . ثم هم أولئك الذين ثقفوا العالم الحديث بنتاج العالم القديم (١) . كما أنهم مزجوا بين الآراء اليونانية والآراء الهندية فى الرياضيات ، وعلى أرضهم صار النقاش والكتابة عن الشرق وإنتاجه الفكرى والغرب وما قدمه للبشرية . وبفضل العرب عرف الأوروبيون ما خلفه الإغريق والهنود والصينيون . وفتحوا أمام التفكير لأوروبى آفاقاً جديدة ، وأيقظوا العقل الغربى ليبدأ البحث ، وهزوه من نستسلامه الفكرى ليبدأ يناقش أموراً لم يشك فيها ولا فى صحتها ، وكان من نتيجة اللقاح الفكرى على يد العرب أن بدأت المدنية سيرها الحثيث نحو التقدم.

ويتحمس الدكتور فروخ (٢) لعبقرية العرب وأسسها ؛ فيتكلم عن الحرية العلمية قائلا : إنه بينما كان الخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون يجادلون الخوارج والنصارى واليهود والصابئة والمجوس بالتى هى أحسن ، ويعقدون لهم المجالس للمناظرة ويدرون عليهم الأرزاق ، ويفتحون لهم أبواب معاهد العلم .. بينما كان هؤلاء يقفون هذا الموقف كان الذى يجسر على تبيان فضل العقل فى أوروبا يربط إلى سارية مركوزة فى نار متأججة ، أو تشد أطرافه الأربعة إلى أربعة جياد ينهال عليها الموكلون بها ضرباً بالسياط .

معاهد التعليم :

يقسم الدكتور أحمد شلبى أمكنة التعليم فى التربية الإسلامية إلى حقبتين : الأولى قبل انتشار المدارس ، والثانية بعد انتشارها . والحد الفاصل بينهما هو عام ٤٥٩ هـ وفيه افتتحت فى بغداد أول مدرسة من عديد من المدارس المنظمة التى أنشأها الوزير السلجوقى العظيم نظام الملك . فقبل انتشار المدارس تعلم المسلمون فى :

١ ــ الكتاب : وقد عرف فى بلاد العرب قبل ظهور الإسلام ؛ وكان

---

(١) عمر فروخ : عبقرية العرب فى العلم والفلسفة ، ص ١٥

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠

لتعليم القراءة والكتابة . ويروى أن عدد القرشيين الذين كانوا يقرأون ويكتبون عندما جاء الإسلام لم يتجاوز سبعة عشر رجلا فقط . ويلوح أنه كان هناك نوعان من الكتاتيب ، نوع يتعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة ، وكان يقوم بالتعليم بعض الذميين أحياناً كثيرة ، ولم يجلس لتعلم القراءة والكتابة من المسلمين فى صدر الإسلام إلا عدد قليل جداً . والنوع الثانى كان مكاناً يتعلم فيه صبية الكتاب القرآن الكريم والدين وأصبح يطلق على المكان الذى يتعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة ، أو القرآن والدين اسم « الكتاب » . على أن الظاهر من الشواهد التاريخية أن كتاتيب حفظ القرآن لم تظهر فى العهد المبكر للإسلام ، فقد كان الأطفال يجلسون بين الكبار فى مجالسهم وحلقاتهم بالمساجد ، ويتلقى بعضهم القرآن من آبائهم وذويهم أو من مدرسين خصوصيين ولم تكن الكتاتيب فى المساجد ، فقد نص على أنه : « لا يجوز تعليم الأطفال فى المسجد لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات ، بل يتخذون للتعليم حوانيت فى الدروب وأطراف السوق » . وقد لجأ بعض المدرسين — على الرغم من هذه التحذيرات — إلى اتخاذ زوايا من المساجد يعلمون بها . أو غرفاً ملحقة بالمساجد .

واختلف حجم الكتاب من حجرة واحدة إلى مكان متسع ، فيروى ياقوت فى « معجم الأدباء » أن كتاب أبى قاسم البلخى كان به ٣٠٠٠ تلميذ آ. وكان فسيحاً جداً يتسع لهذا العدد ، ولهذا احتاج البلخى أن يركب حمار ليتردد بين هؤلاء وأولئك ويشرف على جميع تلاميذه (١) .

وقد ازداد عدد الكتاتيب فى القرن الثانى الهجرى حتى أصبح بكل قرية كتاب ويذكر ابن خلدون فى مقدمته (٢) أن ما درسه الولدان اختلف من قطر إسلامى لقطر آخر ، ولكن يلوح أن الدراسة اشتملت على القرآن

---

(١) المرجع السابق ، ص : ٢٢

(٢) ابن خلدون : المقدمة . ص ٣٩٧ - ٣٩٨

وأحاديث الأخيار ، وبعض الأحكام الدينية ، والشعر ، ومبادىء الحساب ، وبعض من قواعد اللغة العربية ، هذا إلى جانب تعلم القراءة والكتابة والخط الذى كان له مدرسون مختصون . واستعمل الصبية الألواح فى الكتابة .

والظاهر أن مكانة الكتاب فى القرون الأولى الهجرية كانت عالية الشأن فهو بداية الطريق إلى تعليم أعلى . قال الإمام الشافعى — رضى الله عنه — «كنت يتيماً فى حجر أمى فدفعتنى فى الكتاب ... فلما ختمت القرآن دخلت المسجد لطلب العلم والتوسع فى الثقافة الدينية » .

ويروى أن الحجاج بن يوسف كان معلماً بأحد الكتاتيب يعلم الأطفال ويأجرونه خبزاً ، بينما كان عبد الله بن الحرث يعلم دون أن يأخذ أجراً .

هذا ، وقد أشار المقريزى إلى عدد من الكتاتيب التى كانت ملحقة بالمساجد فى مصر فى عهد المماليك لتعليم الفقراء واليتامى من الأطفال القرآن الكريم . ويؤخذ من هذا (١) : حرص المسلمين وتشجيعهم نشر التعليم ، كما أن الفقر أو اليتم لم يكن عقبة فى سبيل التعلم . فكلما كان الأغنياء والقادرون يتعلمون كان الفقراء يجدون الفرصة فى التعلم وحفظ القرآن وطلب العلم .

وما يذكر بالإجلال والتكريم تسابق بعض المسلمين لفتح الكتاتيب لتعليم الأطفال ابتغاء التقرب إلى الله ونشر التعليم .

ويذكر أن معاملة المعلمين للأطفال اتسمت بالعدالة والمساواة دون تميز البعض على البعض الآخر ، بل لم توجد ما نعهده اليوم بالمدارس الخاصة أو المميزة لأبناء الأغنياء أو ميسورى الحال . ففد جلس الأطفال متجاورين تظللهم الرغبة فى التعلم . والظاهر أن الحجرة التى كان الأطفال يدرسون بها ضمت أكثر من مستوى تعليمى ، وكانت مهمة المعلم — والحال هكذا — ليست سهلة . وما أشبه هذا — إلى حد — بما يطلق عليه اليوم اسم « المدرسة ذات الصف الواحد أو الفصل الواحد » . وكان هذا سارياً فى بعض الكتاتيب وليس فى كلها .

---

(١) محمد عطيه الابراشى : التربية الاسلامية : ص : ٥٠

ولنا أن نعمل الخيال — حيث المصادر غير كافية — لتصور طرائق التعليم ومعالجة تنوع المستويات . ويغلب الظن أن المعلم درس كما تعلم ، وأن التجربة فى التعليم ونجاح محاولة ما وفشل محاولة أخرى أنارت شيئاً من الهداية للمعلم لكيفية التعليم . وشك قليل يساور الكاتب فى أن نجاحاً تحقق بالفعل باتباع أساليب تعليمية أتت أكلها ، نبعت وازدهرت من الواقع التربوى فى الكتاتيب فى العصور الوسطى .

٢ — القصور : وكان الخلفاء والأمراء والأغنياء يتخذون لأولادهم معلمين خاصين يذهبون إلى القصور ويجلس الأولاد إليهم يتلقون منهم قدراً من الثقافة والمعرفة . وكان الوالد يشترك فى تخطيط وتحديد ما يتعلمه ابنه من معلمه الخاص ، وقد أطلق على هذا المعلم اسم « مؤدب » ، وكان بعضهم يقيم فى القصور حيث أعد جناح للإقامة حتى يتم إشرافهم على تربية الولد .

ويذكر أن المتنبى كان يلقى شعره شادياً فى قصر سيف الدولة الحمدانى . والظاهر أن كرم سيف الدولة ألف حوله قلوب أدباء عصره وعلمائه فهرعوا إليه فى حلب حيث اتخذها قصبته . ويذكر أيضاً أن الكثيرين من الخلفاء والأمراء اتخذوا من قصورهم مجالس للأدب والعلم ، وعقدوا بها الندوات حيث دارت المناقشات والمساجلات والمناظرات ، ومن هؤلاء المعتضد بالله فى بغداد حيث ضم قصره دوراً ومساكن ومقصورات لسكن العلماء ودراستهم وأجرى عليهم وأجزل . وكذلك فعل خيراً بأهل العلم والحكمة معاوية بن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان وغيرهم كثيرون .

٣ — المسجد : لم يختلف المسلمون عن غيرهم فى الباعث على إنشاء المساجد ، فقد أقامها الناس لأغراض دينية ، لهذا استعملوا أماكن العبادة كالكنائس والأديرة والهياكل والمعابد للتدريس ، كما قام رجال الدين بتعليم الأولاد . وهذا ما فعله المسلمون ، فلم يكن المسجد مكاناً للعبادة فحسب ، بل كان محكمة للتقاضى ومكاناً للدراسة ، بل كان أيضاً ميداناً لاجتماع الجيش الباسل ، وداراً لاستقبال السفراء . وقد سمى المسجد « بيت الله » فلا يحتاج

الداخل إلى استئناس ولا إلى استئذان للدخول سواء كان ذلك للدراسة أو للتعبد . ويلوح أن المسلمين قد تأثروا بالعرب قبل الإسلام ، وكان لهؤلاء متعبدهم المقدس وهو (البيت الحرام) حيث أقام فيه عبدة الأصنام أصنامهم على اختلافها . وبعد أن أبعد المسلمون عن مكة وخرج النبي عليه السلام مهاجراً إلى المدينة أقام فى « قباء » مسجداً هو أول مسجد فى الإسلام ، ثم بنى الرسول عليه السلام إثر دخوله المدينة مسجده بالمربد ، وكان يجلس فيه يعلم أصحابه دينهم ودنياهم .

وصار المسلمون يبنون فى كل مدينة مسجداً ، وعلت المآذن فى مختلف الأمصار ، فى المدن والقرى . ولعل أول جامع بنى فى مصر هو جامع عمرو بن العاص الذى بنى فى العام الحادى والثلاثين من الهجرة بأمر من عمر بن الخطاب بعد فتح مصر ، وظل هذا المسجد ينمو حتى أصبح مركزاً للثقافة ومحكمة للقضاء . وكان به أكثر من أربعين حلقة دراسية للتعليم يؤمها الطلبة للدراسة والبحث ، ومنها حلقة الإمام الشافعى (١) . ثم أسس أحمد بن طولون جامعه بالقطائع عام ٢٦٥ هـ ، وجاء هذا الجامع بعد جامع العسكر شمالى الفسطاط ، وانتقلت صلاة الجمعة من العسكر إلى جامع ابن طولون ، وفى سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) بنى جوهر الصقلى الجامع الأزهر الذى أصبح من الجامعات الأولى فى العالم الإسلامى (٢) .

ومن المساجد ذات الشهرة الذائعة « جامع المنصور ببغداد » وقد بناه أبو جعفر المنصور وجدده هارون الرشيد وأضاف إليه ودعمه . وقد وفد إلى جامع المنصور خلق غفير من الأساتذة والطلبة ، ولعل من أشهر من جلسوا للقراءة فى هذا الجامع الكسائى ، فقد قرأ فيه علوم اللغة .

أما الجامع الأموى بدمشق فهو من عجائب الدنيا ، ويقال إن الوليد

---

(١) محمد عطيه الابراشى : التربية الإسلامية . ص : ٥ .

(٢) التعليم فى الأزهر سوف يأتى فيما بعد فى معرض الحديث عن التعليم فى مصر الإسلامية .

بن عبد الملك أنفق على بنائه خراج المملكة سبع سنوات . وكانت فيه حلقات للتدريس للطلبة ، كما كان للمالكية زاوية للتدريس يجتمع فيها طلبة المغاربة ، كما كانت به مدرسة للشافعية . واشتمل أيضاً على عدة زوايا خصصت للطلبة للدرس والنسخ فى هدوء .

٤ ــ حوانيت الوراقين : مع انتشار الورق من منتجات مصر فى ربوع الدولة الإسلامية كثرت الكتب وتفنن العرب فى تجليدها وتجميعها ، وظهرت مكتبات وحوانيت للوراقين . على أن هذه المكتبات والحوانيت لم يقتصر على بيع الكتب والتجارة ، بل كانت أمكنة يجتمع فيها الأدباء والمتكلمون ... وتتحول مناقشاتهم إلى ندوات ومناظرات ، وغالباً ما كان أصحاب هذه الحوانيت من المهتمين بالأدب والعلم والدين ، ومنهم من تفقهوا فكانوا يجذبون إليهم محبى العلم والمعرفة . ويذكر أن الجاحظ كان يبيت بهذه الحوانيت للقراءة والاطلاع والبحث .

٥ ــ منازل العلماء : اتخذ رسول الله عليه السلام دار الأرقم بن أبى الأرقم مكاناً يعلم فيه المسلمين تعاليم ومبادىء الدين الجديد . ويقرئهم ما نزل من آيات الذكر الحكيم ، كما كان المنزل ملتقى الذين يتخيرون الإسلام ديناً فيأتون إليه ناشدين الإسلام . ثم أقيمت المساجد وأصبحت مكان اللقاء والاجتماع . على أن بيوتاً كثيرة فى التاريخ الإسلامى لعبت دور المدارس كمنزل الرئيس ابن سينا حيث كان يجلس إلى طلبته ومحبى علمه الغزير ليلا . كما كان الإمام الغزالى يستقبل تلاميذه بداره بعد أن استقال من العمل بنظامية نيسابور .

المدارس

حفلت المساجد بحلقات الدرس والمناقشة كما أسلفت القول ، مما كان يؤذى بعض المصلين الذين تطرق آذانهم أصوات المناقشات العالية الحامية الوطيس . ومع اتساع رقعة العلم كان لابد من تخصيص أمكنة ملائمة يجد فيها المعلمون مجالات أوسع للنقاش والبحث والمجادلة . بل إن المعلمين أنفسهم

الذين شغلوا بالتعليم جل وقتهم حاولوا الارتزاق باحتراف حرفة بسيطة . ولما فشلوا تطلعوا إلى المدارس عسى أن يكون وجودها ضامناً لهم فى جرايات تقوم بحاجاتهم (١) .

وتختلف المدارس عن المساجد . ففى كل مدرسة إيوان وهو يقابل قاعة المحاضرات اليوم ، ويلحق بالمدرسة مساكن للطلبة ومرافق أخرى وقاعة للطعام.

ويغلب أن المدارس لم تعرف فى عهد الصحابة والتابعين ، ولم تنشأ إلا فى نهاية القرن الرابع الهجرى ، وأن أهل نيسابور هم أول من بنوا مدرسة فى الإسلام وسموها المدرسة البيهقية . والظاهر أنه كان لكل مدرسة أوقاف يصرف منها على الأساتذه والطلبة ، والدين هو الغالب على مناهج المدارس . بل كانت كل مدرسة تدرس على مذهب من المذاهب الأربعة : أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل . وكانت الظروف السياسية تدعو إلى ذلك . فقد قامت على أنقاض البويهيين والفاطميين (وهما من أنصار الشيعة) دولتا السلاجقة والأيوبيين وهم من أهل السنة . ولذلك أقام السلاجقة والأيوبيون مدارس لتقاوم ما غرسه أهل الشيعة من عقائد يرفضها أهل السنة . فأقام السلاجقة مدارس بالعراق واقتفى أثرهم الشاهات والأتابك الذين أقاموا إمارات على أنقاض السلاجقة ، ولما آل الأمر إلى نور الدين زنكى فى سوريه ومصر أنشأ بهما المدارس ، كما اتجه الأيوبيون فى مصر إلى عقول الناس لغرس المذهب السنى ؛ فأقاموا عديداً من المدارس .

وأهم المدارس التى ظهرت فى التاريخ الإسلامى :

١ — المدرسة النظامية ببغداد : يذكر السبكى أن نظام الملك (وكان الوزير نظام الملك هو السلطان الحقيقى للدولة الأولى للسلاجقة) أنشأ مدرسة عظيمة فى عديد من البلاد منها بغداد وبلخ وأصفهان والبصرة والموصل . على

---

(١) Khuda Bukhsh : Islamic Civilization, p. 285. فى : أحمد شلبى (المرجع السابق) ص : ٩٧

أن نظامية بغداد أكانت لى وأهم المدارس النظامية ، وقد أنشئت عام ٤٥ هـ وقد تم بناؤها فى سنتين .

٢ — المدرسة الناصرية بالقاهرة : ولم تنشأ بالقاهرة مدارس نظامية إلا فى عهد الأيوبيين . أما المدرسة الناصرية فقد بدأ بناءها السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصورى وأتمها السلطان محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣ هـ . وقد وصفها المقريزى بأنها من أجمل مبانى القاهرة وبأنها من أعجب ما عملته أيدى بنى آدم

٣ — المدرسة النورية الكبرى : وهى فى دمشق ، وتنسب إلى نور الدين محمود زنكى الذى بناها سنة ٥٦٣ هـ على مساحة حوالى ١٥٠٠ متر مربع ؛ وهذه المدرسة مازالت باقية الآن بحى الخياطين بدمشق ، وبابها الحالى هو بابها القديم (١)

المكتبات .

روى المؤرخون عن مكتبات فى معظم المساجد والجوامع والمدارس ودور الحكمة ودور العلم لتكون مرجعاً للطلبة والعلماء والنساخ . وإذا أخذ بتقديرات المؤرخين فاننا نعجب للعدد الضخم الذى يسوقه المقريزى عنا خزانة الكتب التى ألحقت بالمدرسة الفاضلية ، فهو يقدر الكتب بها بمائة ألف كتاب . ويذكر ياقوت أنه كان فى مدينة واحدة من مدن خراسان عشر دور للكتب منظمة وتشتمل إحداها على ١٢,٠٠٠ مجلد .

ولعل هذه الأقوال وغيرها تدل على تقدير المسلمين للكتب وإعجابهم بها واهتمامهم بالمكتبات وإقبالهم عليها وعلى تكوينها . بل وتسابق الخلفاء والأمراء على شراء الكتب ؛ فيقال إن الحكم صاحب الأندلس كان يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ، ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه . ويروى عنه أنه عندما سمع أن أبا فرج الأصفهانى كتب كتابه « الأغانى » أرسل إليه ألف دينار ذهباً ليبعث إليه بنسخة وصلت الأندلس قبل أن يخرجه الأصفهانى فى العراق . وبلغ اهتمام

(١) محمد عطية الابراشى : المراجع السابق ، ص ٧٣

الناس من غير المثقفين بالكتب أنه روى عن حرص بعض الأندلسيين على اقتناء للكتب بمنازلهم لما تضفيه من جمال على المنزل وكمال وإجلال على صاحب الدار .

وقد عنى المسلمون بالمكتبات . وكانت عندهم منها ثلاثة أنواع : مكتبات عامة ، ومكتبات بين العامة و الخاصة ، ومكتبات خاصة . أما عن المكتبات العامة فقد كانت فى أبنية جميلة ، حيث كانت تستقبل جمهور المطلعين والباحثين وكان بها حجر متعددة تربط بينها أروقة فسيحة . وثبتت الرفوف بجوار الجدران لتوضع عليها الكتب . وقد خصصت الأروقة للاطلاع وبعض الحجرات للنسخ ، والبعض للاجتماعات . وقد أثثت هذه المكتبات بأثاث فخم وفرشت أرضها بالبسط والحصر حيث كان يجلس المطلعون . ويروى أن راحة المطلعين والباحثين كانت محل اهتمام أولى الأمر ، فقد أقاموا ستائر على النوافذ والأبواب ، ونظمت الكتب على الرفوف مع كتابة اسم الكتاب ومؤلفه على أطراف الصفحات مجتمعة من أسفل وتجعل رؤس الحروف تجاه جلدة بدء الكتاب .وكان بالمكتبات العامة فهارس منظمة على حسب موضوعات الكتب ، كما كانت تلصق على جانب كل دولاب ورقة بها أسماء الكتب التى فيه . وقد سمح بالاستعارة الخارجية ولكن تحت قيود شديدة ، وكثيراً ما كان المستعير يدفع ضماناً ، أما أفاضل الناس والعلماء فقد أعفوا منها .

وكان يعمل بالمكتبات العامة موظفون يرأسهم الخازن ، وهو أمين المكتبة. وكان من أصحاب العلم والمكانة ، ثم المترجمون ، والنساخ ، والمجلدون ، والمناولون وهم الذين يرشدون القراء إلى موضع الكتب على الرفوف ، أو إحضار الكتب لهم من أمكنتها إلى حجرات المطالعة . وقد أطلق على المناولين اسم الخدم لأنهم يخدمون القراء تمييزاً لهم عن الفراشين الذين يقومون على تنظيف فراش وأثاث المكتبة :

ومن أهم المكتبات العامة :

١ ــ خزانة الحكمة أو بيت الحكمة : وقد أسسه هارون الرشيد ببغداد ، ولكن الغموض يكتنفه ، فالمعلومات عنه قليلة ، فمن قائل إنه كان مكتبة فقط . أو مكتبة ومعهداً ومرصداً ، وشك فى أن الرشيد أقامه ، وإنما بناه المأمون ؛ ويعد بيت الحكمة أول مكتبة عامة لها شأن كبير فى العالم الإسلامى ، حيث كان يجتمع فيه فى زمن المأمون صفوة من العلماء والأدباء ، ويحج إليه طالبو العلم والمعرفة . كما أرسل المأمون بعثة إلى القسطنطينية فيها صاحب بيت الحكمة لجلب الكتب اليونانية من طبية وفلسفية . وكلمة خزانة تشير إلى الموضع الذى يخزن فيه الشيء ، فخزانة الكتب عند العباسيين الأوائل أشارت إلى موضع حفظ الكتب.وتسميتها ببيت الحكمة تشير إلى المكان الذى تحفظ فيه الكتب أيضاً كبيت المال حيث يحفظ المال . أما تسميتها بالحكمة ففيها إشارة إلى الفلسفة حيث قل عدد الكتب الدينية بها وزاد عدد الكتب التى عنى بنقلها من الأمم الأخرى وأكثرها فلسفة أو حكمة .

وفى بيت الحكمة نسخت كتب كثيرة وترجمت مؤلفات من لغات أجنبية ويكفى للدلالة على ازدهار الترجمة أنه كان بهذه المكتبة رئيس للمترجمين ومساعدون له .

وعندما استولى المغول وكبيرهم (هولاكو) على بغداد عام ٦٥٦ هـ ، وأعملوا فيها القتل والحرق والسلب ، ذهبت هذه المكتبة الهائلة وضاعت آثارها

٢ ــ دار الحكمة بالقاهرة : وقد أمر الحاكم بأمر الله الفاطمى بانشائها سنة ٣٩٥ هـ ، وأراد لها أن تكون أفضل من بيت الحكمة ببغداد . وقد حملت الكتب إلى دار الحكمة من خزائن القصور ومن مصادر متعددة ، فكانت فيها كتب نفيسة ومخطوطات نادرة فى الدين والآداب والعلوم بفروعها المتعددة . كما أمدها الحاكم بأمر الله بكل مستلزمات النساخين من أقلام ومحابر وورق . وأقيم لها قوام وخدام وفراشون وغيرهم رسموا لخدمتها . وكانت دار الحكمة تزخر دائماً بالفقهاء والقراء والنحاة والمنجمين والأطباء . ويذكر أن الحاكم أجرى عليها من الأرزاق السنية ما حقق حياة هنيئة للخدام والفراشين ، كما أمر

بفتح أبوابها لمن يشاء الاستفادة مما فيها من كنوز علمية سواء فى بطون الكتب أو من المناقشات والمحاورات والمحاضرات التى استمرت منذ أن فتحت دار الحكمة . وقد وصفها المقريزى (١) قائلا إنها كانت من عجائب الدنيا ، وإنه لم يكن بمزها فى الأمصار الإسلامية دار كتب ، كما أنها حوت مليوناً وستمائة] ألف كتاب ، وفيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة .

وكم يؤلم أن يذكر المؤرخون أن بعض هذه الكتب وكان الخط فيها محلى بماء الذهب والفضة ذهب عنوة إلى الجند الأتراك مقابل رواتبهم المتأخرة زمن المستنصر بالله ، بل إن بعض الكتب اتخذ العبيد والإماء من جلودها نعالا وأحذية .

واستمرت دار الحكمة فى عملها إلى أن هدمها صلاح الدين الأيوبى وأقام مكانها مدرسة للشافعية (٢) :

وهناك مكتبات عامة أخرى مثل المدرسة الحيدرية بالنجف بالعراق ، وسميت بالحيدرية نسبة إلى حيدر وهو إسم الإمام على بن أبى طالب ، وهو الذى يهتف به الشيعة فى مناسباتهم الدينية . ولا تزال المكتبة موجودة إلى اليوم، ويذكر المؤرخون أيضاً من المكتبات العامة مكتبة (ابن سوار) بالبصرة أسسها أحد رجال عضد الدولة ، وكان يؤدى فيها تدريس بجوار الكتب . كما أنشأ سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة لخزانة سابور بالكرخ عام ٣٨٣ هـ ، وكان بها حوالى عشرة آلاف وأربعمائة مجلد ، وكانت مركزاً ثقافياً ممتازاً . هذا إلى جانب مكتبات المدارس وكان أشهرها مكتبة المدرسة النظامة ببغداد .

والنوع الثانى من المكتبات يطلق عليه مكتبات بين العامة والخاصة ، لم يسمح بالدخول فيها لكل الناس ، ولم تكن خاصة ؛ لأن الذين أقاموها لم يقصدوا أن تكون لهم وحدهم . وقد أنشأ هذه المكتبات الخلفاء والملوك

---

(١) المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار . الجزء الثانى - ص ٢٥٥

(٢) أحمد شلبى : المرجع الأسبق . ١٧١

والأمراء ، لا لحب فى الاطلاع والتحصيل ولكن تظاهراً أمام الناس . ومن هذه المكتبات مكتبة الناصر لدين الله ومكتبة المعتصم بالله .

والنوع الثالث من المكتبات هو المكتبات الخاصة ، وقد أنشأها العلماء والأدباء لاطلاعهم الخاص . وقد كثر عدد هذه المكتبات . فكان من الصعب أن نجد عالماً أو أديباً لا يقتنى فى بيته مكتبة تزخر بالكتب .

والنوع الرابع مكتبات المشافى (١) .

فمن مآثر الإسلام الكبرى عنايته بالمرضى واهتمامه بعلاجهم وإيجاد الأماكن اللازمة لمعالجتهم وتطبيبهم وقد اهتم أوائل الخلفاء بهذه النواحى . فنقرأ فى كتب التاريخ أن الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك اهتم بالمرضى فعزل المجذومين فى أماكن خاصة وأوقف عليهم من يهتم بهم ، كذلك عين لكل أعمى قائداً يهديه السبيل إلى غير ذلك من الاخبار ، ومع تقدم الزمان ورقى الحضارة واستجار العمران أنشئت المشافى ، وقد استعمل المسلمون لها الكلمة الفارسية مارستان أو بيمارستان وتعنى بيت المرضى (٢) ، وقد أنشأ الخلفاء والحكام المشافى فى طول البلاد وعرضها ، فقد أوجد عضد الدولة البويهى فى القرن الرابع الهجرى مارستاناً فى بغداد سمى باسمه فظل فترة طويلة يستقبل المرضى ويهتم بهم ، كذلك أنشأ نور الدين الشهيد فى دمشق فى القرن السادس الهجرى بهذه المشافى مكتبات حافلة تضم ثمرات العقول لأن المستشفى لم يكن مكاناً للتطبيب والتمريض فحسب ، وإنما كان أيضاً مكاناً لتعليم طلاب الطب الأمراض وطرق معالجتها فكان مكاناً للتدريب العملى ومكاناً للدراسة النظرية ، والمشافى التى عندنا أخبار عن مكتباتها هى البيمارستان العقدى فقد ألحقت به مكتبة ضخمة كانت مصدراً أساسياً للطلاب والأساتذة على السواء ، وكذلك كانت الحال فى المارستان النورى فى دمشق ، ذلك أن نور الدين الذى حكم قسماً من العراق وسوريا ومصر عمر بيمارستاناً فى دمشق وأطلق عليه اسمه ،

---

(١) عن محمد ماهر حمادة : المكتبات فى الإسلام : ص : ٤٤ - ١٤٧ - ، ١٩٠ - ١٩٧

(٢) كان البيمارستان مستشفى جميع الأمراض الجسمية والعقلية للرجال والنساء ويروى المقريزى أن أول من بنى البيمارستانات فى الاسلام الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨ هـ .

فلما عمر البيمارستان جعل أمر الطب فيه إلى الطبيب أبى المجد بن أبى الحكم المتوفى سنة ٥٧٠ هـ . وكان يعود على المرضى فيه . وكان يعتبر أحوالهم وبين يديه المشارفون والخدام للمرضى ، وكل ما يكتبه للمرضى لا يؤخر عنهم ، فاذا فرغ من ذلك طلع القلعة وافتقد مرضى السلطان وغيرهم وعاد إلى البيمارستان وجلس فى الإيوان الكبير ، وجميع الإيوان مفروش . ويحضر كتب الأشغال ، وكان نور الدين قد أوقف جملة كثيرة من الكتب الطبية ، وكانت فى الخزانتين اللتين فى صدر الايوان ، وكان جماعة الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويجلسون بين يديه ، ثم تجرى مباحث طبية وتقرأ التلاميذ ولا يزال معهم فى أشغال ونظر فى الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يركب بعد ذلك كله إلى داره بدمشق .

كذلك يورد المقريزى ذكر مكتبة ملحقة بالمارستان المنصورى فى القاهرة فى زمانه (١) . وقد بلغت بعض المكتبات الملحقة بالمشافى حداً ضخماً ، فقد ذكر أن عدد الكتب التى وجدت فى مستشفى قلاوون فى القاهرة حوالى مائة ألف مجلد أخذت أغلبها من دار الحكمة فى القاهرة (٢) .

أنواع أخرى من المكتبات :

هناك أنواع أخرى من المكتبات أقل شهرة وأقل أهميةوذيوعاً مما ذكرنا من المكتبات ، منها المكتبات التى كانت تلحق بالترب والمقابر ، ذلك أن العادة جرت أن يلحق بقبور العظماء والملوك والأغنياء مكان لقراءة القرآن بشكل شبه متصل وأن تلحق به مكتبة صغيرة فيها بعض الكتب الدينية ، وإن كان بعضها قد بلغ حداً من الفخامة لا بأس به . كذلك كان هناك مكتبات فى الخانقاه ، وبعضها مهم حتى أننا نجد ياقوت الحموى يذكر مكتبة كبرى

---

(١) المقريزى . الخطط المقريزيه ، جـ ٣ ، ص ٣٢٢

(٢) فنسك . (محرر) دائرة المعارف الاسلاميه . ليدن ، بريل ، ١٩٠٩-١٩٣٨ م ، جـ ٣ ، ص ٣٦١

فى مرو فى خانقاه هناك (١) . وقد اعتاد بعض الحكام أن ينقلوا معهم بعض الكتب التى يحتاجونها أثناء سفرهم ، وقد ذكرنا سابقاً قصة الصاحب بن عباد وكيف أنه كان يصطحب معه أثناء سفره من الكتب ما حمولته عشرة جمال فلما صدر كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى استغنى عن ذلك اكتفاء بكتاب الأغانى ، وقد اعتاد بعض حكام المغرب الأقصى (مراكش) فى العصور المتأخرة أن يصطحب معه مكتبة متنقلة أثناء سفره فقد ورد ذكر مثل هذه المكتبة فى كتاب أحكام القرآن لأبى بكر محمد بن عبد الله المعافرى بن عربى ... يروى المؤلف ... خبرنى الشيخ الصالح يوسف الحزام المغربى بالإسكندرية فى سنة ستين وسبعمائة قال رأيت تأليف القاضى أبى بكر بن العربى فى تفسير القرآن المسمى أنوار الفجر كاملا فى خزانة السلطان الملك العادل أمير المسلمين أبى عنان فارس ابن السلطان أمير المسلمين أبى الحسن على ابن السلطان أمير المسلمين أبى سعيد عثمان بن يوسف بن عبد الله ، وكان السلطان أبو عنان آنذاك بمدينة مراكش ، وكانت له خزانة كتب يحملها معه فى الأسفار وكنت أخدمه مع جماعة فى حزم الكتب ورفعها فعددت أسفارها فبلغت عدتها ثمانين مجلداً لم ينقص من الكتاب المذكور شىء (٢) .

نستطيع أن نشبه هذه المكتبات بالمكتبات المتنقلة التى انتشر استعمالها فى بلاد الغرب ، مع شىء من التجوز ، إذ أن الأولى خاصة بالملوك والكبراء على حين أن مهمة الثانية خدمة أفراد الشعب البعيدين عن مراكز المكتبات الكبرى والعامة .

لقد شط بنا القلم قليلا فى هذا الفصل وفى الفصل السابق ولكن شفيعنا فى ذلك وفرة المواد وتنوع الموضوعات وتعدد النماذج مما اضطرنا إلى هذا التوسع الذى نرجو أن يجد فيه القارىء فائدة ومتعة .

---

(١) ياقوت الحموى . معجم البلدان : ج ٨ . ص ٣٦

(٢) أبوبكر المعافرى ، محمد بن عبد الله بن عربى . أحكام القرآن . القاهرة ، المطبعة السعادة ، ١٣٣١ . المقدمة ص أ — ب

استعمال المكتبات للبحث والاستفادة من محتوياتها :

لم تكن المكتبات فى الإسلام موجودة لمجرد الزينة أو للتباهى والتفاخر أو لقطع الوقت وتزجية الفراغ أو إرضاء لهواية جمع الكتب ، بل كانت لغاية أسمى من ذلك بكثير ، فقد كانت مكاناً لتثقيف الشعب ككل ومكاناً للبحث والدرس والتأليف والتمحيص بشكل خاص . وأن النشاط الهائل الذى أظهره علماء الإسلام وأدباؤه عائد بالدرجة الأولى إلى حسن استخدامهم المواد التى توفرت لديهم فى مكتباتهم ، فالمأمون الذكى الطلعة استفاد فائدة كبرى من مطالعاته فى مكتباته واشتهر بالعلم والذكاء لكثرة ما قرأ وبحث وكذلك الجاحظ العالم الموسوعى الذى جمع فأوعى وألف المؤلفات العظيمة استفاد كل الفائدة من المكتبات ومن دكاكين الوراقين ، وكانت مؤلفاته ثمرة مبيته الليالى الطوال فى دكاكين الوراقين يطالع ويدرس ، وإن كتاب « الفهرست » لابن النديم كان ثمرة لاشتغال مؤلفه النشيط بالوراقة والنسخ والأمور المكتبية ، ويستطيع المرء أن يتخيل مقدار الخسارة التى كانت من الممكن أن تلحق بالتراث الإسلامى لو فقد هذا الكتاب ، ذلك أن هذا الكتاب حوى معلومات عن الكتب والمؤلفين والنقل والتعريب ليست موجودة فى غيره من الكتب وكل من أتى بعده نقل عنه واعتمد عليه وهو مدين له فى هذه الناحية .

هذا وأن فيلسوفنا العظيم وطبيبنا النطاسى ابن سينا مدين بعلمه وكتبه ومؤلفاته إلى مطالعاته وحسن استفادته من محتويات مكتبة السلطان نوح بن منصور السامانى التى اطلع عليها وحده وهو فى إبان تفتحه وأوان نضجه ، والتى يصفها بأنها تحوى من الكتب ما لم يصل اسمه إلى كثير من الناس .

كذلك استفاد المؤرخ الكبير ابن مسكويه من كونه خازناً لمكتبتين من أشهر مكتبات عصره وهما مكتبة عضد الدولة البويهى ومكتبة ابن العميد فاستمد مادة كتبه فى التاريخ والأخلاق منهما .

حتى الحكام والخلفاء الأذكياء الذين أحبوا الكتب وجمعوها بالألوف واعتنوا بها وأنفقوا عليها قسماً كبيراً من أموالهم أحسنوا الاستفادة من كتبهم ومكتباتهم ، فهذا هو الحكم الثانى خليفة قرطبة ولعله أعلم خليفة فى الإسلام يصفه صاحب نفح الطيب ويصف استفادته من كتبه بقوله « وكان ذا غرام بها (بالكتب) فقد آثر ذلك على لذات الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمت استفادته . وذكر فى مكان آخر « وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر فى أى فن كان ويكتب نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتى من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن .

بل إن ملوك الطوائف فى الأندلس كالمظفر بن الأفطس استفادوا من مجموعاتهم إلى الحد الذى جعلهم مؤلفين حقيقيين ، فقد ألف هذا الملك « الكتاب المظفرى » فى خمسين مجلداً يشتمل على فنون وعلوم ومغاز وسير ومثل وخبر وجميع ما يختص به علم الأدب . فهو بهذا المعنى دائرة معارف أدبية خقيقية .

ولقد استفاد ياقوت الحموى من مكتبات مرو العشر التى ذكرها استفادة جلى ، وهو نفسه اعترف بذلك بقوله « فكنت أرتع فيها واقتبس من فوائدها وأنسانى حبها كل بلد وألهانى عن الأهل والولد ، وأكثر فوائد هذا الكتاب (يقصد معجم البلدان) وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن » .

كذلك أحسن ابن القوطى استخدام المواد التى وجدها تحت تصرفه فى مكتبتى الرصد فى مراغة والمدرسة المستنصرية فى بغداد ، ذلك أنه أمضى شطراً كبيراً جداً من حياته خازناً وأميناً لأكبر مكتبتين علميتين على عهده ؛ وكان ذا ذكاء مفرط فقرأ ما شاء ونقل ما أراد ، وكانت المكتبتان غاصتين بالكتب النفيسة النادرة فى جميع المواضيع من تاريخ وسير وألقاب وأنساب وفقه وحديث وأخبار وأدب وشعر ولغة وتصوف وحكمة وطب وما وراء الطبيعة .. فاستطاع ، مع وجود هذه المصادر وفى مثل هذا الجو العلمى الذى وجد به أن يؤلف عدداً من المؤلفات القيمة .

وأما ابن خلكان فهو نفسه يعترف بأنه تمكن من تأليف كتابه القيم « وفيات الأعيان » بعد أن امتص المعلومات الموجودة فى كتب معينة كان يهدف من زمن بعيد إلى مطالعتها « فلما وصلت إلى القاهرة صادفت فيها كتباً كنت أؤثر الوقوف عليها ، وما كنت أتفرغ لها ؛ فلما صرت أفرغ من حجام ساباط بعد أن كنت أشغل من ذات النحيين كما يقال فى هذين المثلين طالعت تلك الكتب وأخذت منها حاجتى ثم قصدت لاتمام هذاالكتاب (كتاب وفيات الأعيان) حتى كمل على هذه الصورة » .(١)

على أنه وجد بعض المؤلفين الذين كانوا يسيئون استعمال المكتبات وكتب الآخرين . فأحمد بن على الخطيب يتهم بأنه ألف أغلب كتبه ما عدا التاريخ استناداً على أعمال كان غيره قد بدأ بها ولم يتمها فحصلت له وتممها هو ونسبها إلى نفسه ، يقول ياقوت « سمعت أبا الحسين بن الطيورى ببغداد يقول : « أكثر كتب الخطيب سوى التاريخ مستفادة من كتب الصورى . كان الصورى بدأ بها ولم يتممها ، وكانت للصورى أخت بصور فمات وخلف عندها إثنى عشر عدلا مخروماً من الكتب فلما خرج الخطيب إلى الشام حصل من كتبه ما صنف به كتبه » (٢) .

المعلمون :

هناك مجموعة من الاتجاهات اتبعها المسلمون والعرب عامة فيما يختص بالمعلمين ، فقد سار الاعتقاد أن خير العلم ما جاء عن طريق المعلمين والعلماء والاحتكاك بهم ، ولم يعطوا العلم فى باطن الكتب نفس الأهمية والتأثير كذلك الذى يخرج من أفواه العلماء والأدباء . كذلك لم يفرق العرب بين المعلم والعالم ، بين العلماء المدرسين والعلماء الذين لم يتخذوا التعليم مهنة لهم ، فيذكر مثلا أن الجاحظ كان معلماً لجيله وللأجيال التالية مع أنه لم يتخذ التدريس مهنة له . وقد أدرك العرب ضرورة دراسة المدرس أصول مهنته ؛ فقد عقد ابن خلدون فصلا أبان فيه أن التعليم صناعة تحتاج إلى دراية وتدريب ومعرفة نصريف

(١) ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٦ . ص ٢٥٥ — ٢٥٦

(٢) ياقوت الحموى . معجم الادباء ج ٤ . ص ٢١ — ٢٢

سليم ، فهو يقول (١) : « مما يدل على أن تعلم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه ؛ فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح فى التعليم يختص به شأن الصنائع كلها ، فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم وإلا كان واحداً عند جميعهم .. وملازمة المجالس العلمية ، وكثرة الحفظ ، والعناية بتحصيل العلم ليست جميعها بمانحة ملكة التصرف فى العلم وتعليمه .. ومن أهم ما يلزم فى العلم فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة ، والعمل على تحصيل الملكة التى هى صناعة التعليم .. » .

كما اهتم المسلمون بما بين البيت والمدرسة من علاقات ، فقد جاء فى كتاب مؤلفه مجهول هو « كتاب الإرشاد والتعليم » لبعض الرجال الصوفية ... جاء فيه « والطفل صورة عائلته : فكل ما فيها من خير أو شر ، وكل ما سمعه ورآه ينطبع فيه ، ولهذا كان جهد الأمهات من أهم الأمور فى تربية الأبناء ، ومن ربى ماله ولم يرب ولده فقد ضيع الولد والثروة ، وتربية الفضائل لا يمكن أن تكتسب فى المدارس بل تجب ممارستها مع الطفل من يوم يعى الخطاب ويفهم الكلام ، وأول من يطلب منهم القيام بهذه الوظيفة هم طبعاً الذين يعاشرون الطفل من نشأته معاشرة مستمرة ، يؤثرون عليه بأعمالهم وأقوالهم وسلوكهم ، ثم إذا أضفنا ما تحتاجه هذه التربية من العناء والصبر ، والعقل والحنو والمحبة الخالصة حكمنا بأنها لا تتم إلا بواسطة من أنتجتهم الفطرة الإلهية لهذه المأمورية العالية وهم الوالدان » (٢) .

وكان العلماء المعلمون فى صدر الإسلام يؤدون أعمالهم طلباً للثواب من الله فلم تدفع لهم الدولة مرتبات ، وكان من يجد فى نفسه الكفاءة والقدرة على تثقيف غيره يجلس فى المسجد مختاراً ويأتيه محبو العلم ، وكان هذا المعلم يعلم ما يشاء وفى أى وقت يشاء .

ثم بدأ تدخل الحكومات فى التعليم عندما أقامت معاهد خاصة له ،

---

(١) فى فصل « فى أن التعلم العلم من جملة الصنائع » .

(٢) أحمد شلبى : المرجع الأسبق - عن كتاب الارشاد والتعليم. ص : ٥٤٢ - ٥٤٣ .

وعينت لها معلمين . ويذكر أنه عندما شيد العباسيون بيت الحكمة عينوا فيه علماء للترجمة والإشراف ، وكانوا يدفعون لهم رواتب سخية ، ومن هنا بدأ الإشراف الفعلى للدولة على ما يعلم فى المعاهد . وبلغ هذا الإشراف أقصاه عندما بنى الجامع الأزهر وأصبح معهداً تعليمياً لنشر الدعوة الفاطمية والتنديد بخصومهم ولعنهم . أى أن الدولة وضعت منهاج التعليم وأشرفت على تنفيذه إشرافاً كاملا .

وإذا كان الفاطميون قد دعوا لمذهبهم عن طريق التعليم ؛ فقد عمل أهل السنة على محاربة المذهب الشيعى الذى انتشر على يد البويهيين . وكذلك فعل نور الدين فى الشام وصلاح الدين فى مصر .

وتختلف المصادر التاريخية فى نظرتها للمستوى الاجتماعى للمدرس ، ولكن يلوح أن الاتجاه فى صف تقسيم المدرسين إلى ثلاث طوائف :

الأولى : معلمو الكتاتيب : وكان بينهم فقهاء وشعراء وخطباء ، ولكن غالبيتهم كانوا جماعة اندسوا إلى مهنة التعليم وهم أبعد ما يكونون عنها ؛ ويروى أن منهم من امتهن كرامته وحظى بثقافة ضحلة وخلق وضيع حتى قيل فى الأمثال « أحمق من معلم كتاب » . وغريب ما يذكره بعض المؤرخين والكتاب مثل ابن حوقل والدينورى والأصفهانى عن الدرك الأسفل الذى انحدر إليه كثير من معلمى الكتاتيب ، ففى باليرمو بجزيرة صقلية لجأ إلى هذه المهنة كثيرون — حيث أعفى المعلمون من الانخراط فى الجيش — من الأغبياء وكريهى المنظر والحمقى ومن لا خلق لهم ، ومن عرف عنهم شهادة الزور ، حتى قيل إن قبول شهادة معلمى الكتاتيب كان موضع تردد من القضاة . وقد نرى بعض المبالغة فى هذه الأقوال ولكن بعض مؤرخى الغرب يرجعون مهانة مكان معلم الكتاتيب إلى أنهم كانوا فى أول الأمر من الموالى والذميين ، كما أن العرب تأثروا بالروايات اليونانية الهزلية التى شخصت المعلم فى صورة مضحكة .

الثانية : المؤدبون : وقد نظر إلى تأديب أولاد الخاصة صبياناً كانوا أو

كباراً على أنه عمل عظيم يكسب صاحبه فخراً وإجلالا ورفعة لشأن المؤدب .

الثالثة : معلموا المساجد والمدارس : وقد سبقت الإشارة إليهم .

خلاصة عن التعليم فى مصر بعد الفتح الأسلامى

تم فتح مصر على يد عمرو بن العاص فى زمن عمر بن الخطاب عام ٢٠ هـ - ٦٤٠ م ، وكانت الثقافة اليونانية الرومانية منتشرة فيها . وبنى عمر جامعه المعروف باسمه فى الفسطاط ، وأصبح هذا الجامع مركزاً للحركة الثقافية فى مصر والتى كان محورها الدين وعلومه من تفسير للقرآن الكريم ورواية لقراءاته وكذا الرواية للحديث الشريف . وتولى جماعة من الصحابة والتابعين التعليم فى هذا الجامع ، ومن أعظمهم صيتاً عبد الله بن عمرو بن العاص. وبدخول كثيرين من قبط مصر الإسلام وإقبالهم على اللغة العربية وعلم الدين نبغ بعضهم فخرجوا إلى الأقطار الإسلامية ثم عادوا يعلمون ويجلسوون فى المساجد يفيدون الناس بعلمهم .

وبمرور السنين ووفود العلماء إلى مصر ، وخروج طالبى العلم منها ، بدأت فئات تتشيع للحنفية وأخرى للمالكية وثالثة للشافعية ، وقامت بين الفئات مناظرات ومحاورات . على أن التعليم بصبغته الدينية لم يتعد فى السنين المبكرة الفسطاط والاسكندرية ، ثم انتشر فى أوائل القرن الثالث الهجرى فى قرى مصر . على أن الاسكندرية بتاريخها وبمكتبتها التى تهم العرب بحرقها ، وبمدرستها الراسخة فى الفلسفة ظلت مركزاً للإشعاع فى العلوم العقلية ، ولكن على نطاق ضيق . وقد اعتمدت مصر فى العلوم العقلية على ما يفيد إليها من إنتاج العراق ، خاصة إبان نهضتها العلمية أيام العباسيين . ثم بدأ الاضمحلال يسرى فى أوصال الدولة العباسية حتى انقسمت إلى دويلات صغيرة تنعم بالاستقلال . وبينما كانت بغداد تهبط ، كانت دويلات ترتفع ومنها مصر التى استقل بها الطولونيون ، ثم خلفهم الإخشيديون الذين شجعوا العلماء والشعراء والأدباء . وقد أسس محمد بن طنج الإخشيد دولته عام ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ م ، ويذكر أنه اشترى عبداً بثمانية عشر دينار وكان قبيح الخلقة دميما وسمى

كافوراً ، ولكنه تربى فى القصر تربية عالية ، وأعجب به الإخشيد حتى عهد إليه بتربية ولديه أبى القاسم أنو جور وأبى الحسن على . وقد آل حكم مصر إلى كافور عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م وكنيته « أبو المسك » من قبيل التمليح . وفى حكم كافور أغدق على العلماء والأدباء ، وقد نبغ منهم عدد كبير منهم سيبويه المصرى . كما كان يعقد الندوات فى مجلسه كل ليلة ويجزل العطايا حتى ازدهرت الآداب والعلوم فى عهده (١) .

وبعد موت كافور عام ٣٥٧ هـ بدأت مصر تفقد الاستقرار والهدوء ويسودها الاضطراب والفوضى ، كما لم تستطع بغداد أن تعيد النظام والاستقرار إلى مصر لأن الخليفة العباسى نفسه كان أضعف من أن يسوس عاصمة خلافته. ولذلك فقد أعد المعز الخليفة الفاطمى فى القيروان — أكبر مدن المغرب — جيشاً قوامه مائة ألف محارب على رأسهم قائده (جوهر الصقلى) ويمم الجيش شرقاً قاصداً مصر ذات المركز الجغرافى والثروة . ووصل جوهر الاسكندرية ودخلها دون حرب بعد أن تعهد بالمحافظة على الأهالى ، ثم سار جنوباً حتى قابل الأشراف والعلماء والقضاة والتجار فى الجيزة ، ثم دخل الفسطاط . وفى سواد الليل من ليلة دخوله الفسطاط ، وضع بالمكان الذى عسكر به أساس مدينة القاهرة . وامتدت الدولة الفاطمية من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر . ثم صارت مصر مركز الحكم فى هذه الدولة الكبيرة بعد أن كتب جوهر للمعز ، وجاء ليدخل القاهرة العاصمة الجديدة عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م .

والفاطميون من الشيعة ، وأهل مصر والعباسيون من السنيين . ولذلك فقد كان للدعوة الفاطمية بمصر أعظم الأثر فى التعليم ، حيث اهتم الخلفاء الفاطميون بنشرها ، وأقاموا المساجد وأجزلوا العطاء للعلماء والمعلمين ، وأنشأوا مجالس الدرس فى القصور الفاطمية الزاهرة ، وأنشأ الحاكم بأمر الله دار العلم . ونما الجامع الأزهر ليكون جامعة عالمية يأتيها المسلمون من مشارق

---

(١) على أبراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى . ص : ٧٠ — ٧٢ .

الأرض ومغاربها (١) .

أما عن التعليم فى مصر الفاطمية فيمكن أن ننظر إليه بشيء من التحفظ على أنه نمط للتربية الإسلامية فى القرون التالية منذ الحكم الفاطمى فى القرن العاشر الميلادى وإلى نهاية العصر العثمانى . كما سيأتى بيانه فيما بعد .

ويلخص نظام التعليم ، ومدارسه ، ومناهجه ، ومعلموه فى النقاط التالية:

أولا : الكتاتيب : فكان الطفل يذهب إلى الكتاب فيما بين الخامسة والسابعة ، ويظل بالكتاب إلى سن الرابعة عشرة إذا كان من أسرة ذات يسر . أما إذا كانت معوزة فيبقى سنتين أو ثلاث سنوات . ويبقى الطفل بالكتاب من شروق الشمس إلى آذان العصر . وكان الأطفال يدرسون بالكتاب القرآن الكريم ، وهو بمثابة أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل من بعض الملكات. « وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده ، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات ، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ينبنى عليه (٢) » . وإلى جانب حفظ القرآن ، منقسماً إلى أقسام ، كان الطفل يتعلم قليلا من الحساب واللغة والنحو والشعر .

ويقوم التدريس على الحفظ والتقليد مع مراعاة ظروف كل طفل ، فكان المعلم يشرف على تلاميذه ، ومنهم الذى يكتب فى اللوح ، والذى يحفظ والذى يسمع .. وقد تحول التعليم إلى حرفة يرتزق منها المعلمون ، بل أصبح صناعة لا يتغاء الرزق اختصت بها طبقة من الناس. على أن المصادر التاريخية. كما أوضحت سابقاً ، تتحدث عن مهانة معلمى الكتاتيب ، وأخرى تجلّهم وترفعهم . والظاهر أنه كانت هناك مستويات من المعلمين ، بل لقد عرفت لهم ألقاب تختلف باختلاف الدراسة التى يقومون بها . وتبدأ الألقاب على النحو الآتى :

(المعلم) وهو أقل الرتب وأكثرها انتشاراً ، ولم ينل صاحب اللقب مركزاً مرموقاً . ثم (المؤدب (وقد كانت حالته أحسن من المعلم فهو يذهب إلى البيوت والقصور . ثم (المدرس) وكان يعلم العلوم الشرعية وقد سميت

---

(١) خطاب عطية على : التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ، ص ٦١ - ٦٤.
(٢) ابن خلدون : المقدمة ص٤٣٩

مدارس نظام الملك بهذا نسبة للقب . ثم يقوم (المعيد) فيشرح للتلاميذ ويفسر ما ألقاه المدرس ، أما رتبة أو لقب (الشيخ) فانها قصرت على العلماء احتراماً لهم وتوقيراً . ومن ألقاب العلماء (الفقيه) ، وقد كان يطلق تجاوزاً على فقهاء المكاتب . أما لقب (الأستاذ) فهو فارسى الأصل ، وكان يطلق أولا على أصحاب المصانع ثم أطلق على من أظهر مهارة فى التعليم . ومن ألقاب كبار العلماء (الرحلة (وصاحبه على شهرة بالعلم والتعليم حتى إن الطلبة يرحلون إليه ويتكبدون المشاق للاستفادة من علمه الغزير . أما أعلى درجات السلم العلمى فكانت (الإمام) والإمام فى علم مرجع فيه ، وهو ثقة فى هذا العلم(١)

ويتضح من هذه الألقاب ومن موقف الكتاب والمؤرخين من معلمى الكتاتيب وغيرهم ،أن علم المعلم كان محدداً لدرجته ومكانته ،فلا نظن أن يعهد كبير بابنه لمؤدب لا يكون على علم كاف وثقافة عالية وسمعة طيبة . ويوح كأنه يترسب فى التدريس بالكتاتيب أقل المعلمين علماً وثقافة ممن لم يتملكنوا من التقدم إلى التعليم فى غير الكتاتيب . ونظرة الناس لهم أقل من نظرتهم إلى المؤدبين والمدرسين مثلا . كما أن قبول معلمى الكتاتيب الطعام ، خاصة الخبز من التلاميذ ، بل ووضوح حاجاتهم إلى ما يرسله آباء التلاميذ إليهم قد أنزل من مكانتهم الاجتماعية . ومع ذلك فقد كان يطلب منهم أن يكونوا قدوة صالحة ... لا يأتون منكراً أو فساداً أمام تلاميذهم .

وقد هدف التعليم فى الكتاب إلى إعداد الفرد لمراحل تعليم تالية أو تسلحه بقدر من المعرفة والمهارة اللغوية والحسابية إلى جانب التربية الدينية والتى لها شأن كبير وقتئذ إذا أنهى تعليمه بالكتاب واتجه إلى التجارة مثلا أو الزراعة على أن الجدير بالذكر أن التربية الخلقية لها شأن عظيم ، فكانت فروض الصلاة والصوم والطاعة مطلوبة من الصبيان فى المكاتب . وكثيراً ما لجأ معلمو الكتاتيب إلى العقوبات البدنية الرادعة مما كون عند الأطفال خوفاً من عصيان الأوامر ورغبة فى الظهور بمظهر المطيعين أمام معلميهم ، وساكنين لا يأتون

---

(١) حطاب عطية على : الموجع الاسبق ٨٠ - ٨١

حركة أو صوتاً إلا إذا أمروا بذلك . ولم تكن للرياضة البدنية أو العناية بأمور الصحة نصيب يذكر .

ثانياً : الدعوة للمذهب الشيعى : وفى سبيل نشر المذهب الشيعى وإحلاله محل السنة بذل الخلفاء الفاطميون الكثير ، واتجه نظرهم إلى المعلمين والطلبة ؛ فأغدقوا عليهم حتى يدرسوا المذهب الشيعى ويعتنقوه . بل إنهم قصروا الوظائف الكبرى وشبه الكبرى فى الدولة على أنصار مذهبهم . واتخذوا من المساجد أماكن لنشر المذهب ، وخاصة فى الجامع الأزهر . ويحدثنا المؤرخون أن الخلفاء أوقفوا الأوقاف وأنفقوا الأموال على المساجد ، فأمعنوا فى زينتها وزخرفتها بالمصابيح والتنانير ، وكان بعضها من الفضة الخالصة . كما نقلوا إلى بعض المساجد نسخاً من القرآن الكريم مكتوبة بالذهب . وبولغ فى الاعتناء بالمساجد حتى تجذب الناس إليها ويتعلموا فيها . ولكن يؤخذ على الفاطميين اضطهادهم لمن خالفوا مذهبهم . فيذكر أن رجلا ضرب بمصر وطوف به فى الشوارع لأنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس . كما أن تصرفات الحاكم بأمر الله الفاطمى (٣٨٦ هـ — ٤١١ هـ — ٩٩٦ — ١٠٠٢ م) تدعو إلى الدهشة ، فقد أغدق وبذل على العلماء وبنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ، ثم قتلهم وخربها . كما أنه بنى داراً للعلم وأجلس فيها الفقهاء والمحدثين عام ٤٠٠ هـ ، ثم هدمها بعد ثلاث سنوات وقتل من كان بها من الفقهاء والمحدثين . ومع ذلك فالحق يقال عن اهتمام الفاطميين بالعلوم العقلية إلى جانب اهتمامهم بالعلوم النقلية ، وأنهم شجعوا العلماء على المجيء إلى مصر . ونبغ فى حكمهم علماء وأطباء .

ثالثاً : التعليم فى الجوامع : وكان لجوامع عمرو وابن طولون والجامع الأزهر أثر كبير فى ازدهار النهضة التعليمية ، ولعب الأزهر دوراً كبيراً فى الدعوة للشيعة ، وكان مركز الإشعاع الدينى . وظل الأزهر من سنة الانتهاء من بنائه (٣٦١ هـ) إلى اليوم يؤدى دوره فى الدعوة الإسلامية . وسمى بالأزهر لأنه أحاطت به القصور الزاهرة ، أو كما يقول البعض لما تنبىء له من ازدهار

ورق ، ويرجح أنه سمى بالأزهر تيمناً باسم فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم جدة الفاطميين .

وقد رتبت للأساتذة فيه الأرزاق ، وأوقفت عليه الأوقاف . وكان الخلفاء الفاطميون يزيدون فى عمارته ، حتى وصلت أعمدته ٣٧٥ عموداً التف حولها طلاب العلم ممن جاءوا يستمعون إلى ما يدرس عن مذهب الفاطميين ، وإلى الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات . ووفد إليه طلاب من المشرق والمغرب ، قسموا إلى طوائف ، وكان لكل طائفة رواق يعرف بهم .. وكان أصحاب الرزق الواسع يغدقون على الجامع الأزهر من الذهب والفضة والفلوس إعانة للمجاورين ، بل ويحملون إليهم فى المواسم والأعياد اللحوم والخبز والحلوى .

وإذا كان الأزهر أبرز الجوامع ، فقد كان هناك أيضاً جامع الحاكم ، وجامع عمرو وابن طولون وغيرها من مراكز العلم والإشعاع الثقافى .

وعرف أن الدراسة بالمساجد تقسم إلى ثلاث مراحل : مرحلة ابتدائية لحفظ القرآن الكريم ودراسة فوق ما درس فى الكتاتيب ، ثم مرحلة (ثانوية) تتسع فيها الدراسة على أيدى مدرسين أكثر علماً ، ثم مرحلة (عالية) أو (نهائية) تدرس فيها أمهات الكتب على يد طائفة من الجهابذة . وكان الطالب هو الذى ينقل نفسه من مرحلة إلى أخرى . ولم يكن هناك حد للسن أو البقاء فى مرحلة دراسية . وغلبت العلوم الشرعية على الدراسات فى المساجد ، ودرست فيها أيضاً العلوم اللسانية من نحو وصرف وبلاغة ، وكذلك الجغرافية والرياضة والمنطق والفلسفة والمنطق والطب . ولكن الغالب أن الطب كان يدرس بدار العلم على نطاق أوسع أو بالمارستانات أو على أيدى معلمين خاصين .

ويذكر انه بعد انتهاء الحكم الفاطمى ، اعتقد البعض أن العلوم العقلية تعمل على بلبلة الأفكار وتشويشها وتحمل على الريب فى المعتقدات الدينية ،

فأصبحوا ينظرون إلى هذه العلوم العقلية بعين السخط ، وهجرت دراستها فى المساجد .

رابعاً : طرق التدريس بالمساجد : منذ أن جلس النبى عليه السلام فى المساجد معلماً ، صار التقليد أن يجلس العلماء وحولهم المستمعون ، وهذا هو نظام الحلقات الذى انتشر فى ربوع العالم الإسلامى ، فكان العالم يجلس إلى أحد الأعمدة فى الجامع متكئاً عليه بظهره ومتجهاً إلى القبلة وحوله الطلبة فى حلقة . وكان لكل عالم عامود يعرف به ومن حقه أن يجلس إليه . وكان العالم أو الشيخ يبدأ الدرس بالبسملة والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقرر الدرس بالدقة ثم يختمه بقراءة الفاتحة .

وكانت أساليب التدريس تتلخص فى الإملاء والشرح والمناقشة ، فالأستاذ يملى ما لديه ويشرح ما يصعب على الطلبة فهمه ، ويسمح لهم أثناء الإملاء أو الشرح بالمناقشة فيما يعن لهم (١) . والغالب أنه كانت تخصص ساعات البكور .. والذهن فى نشاطه — لدراسة العلوم النقلية كالتفسير والحديث والفقه والنحو والصرف وغيرها . أما بعد الظهر فكان يخصص للعلوم التى تستند إلى العقل . أما المساء فقد جعل للاستذكار والحوار والتأمل . وكان للطالب أن ينتقل من حلقة إلى أخرى حسبما يسمح نشاطه ، وعلى أساس عدد العلوم التى يرغب فى دراستها ، ويرجح البعض أن الدراسة فى المسجد كانت تتطلب إثنتى عشرة سنة ، وإن كان التحديد الزمنى لا حدود له .

وكان الأستاذ أو الشيخ هو الذى يحدد ويأذن للدارس على يديه بالتدريس أو الرواية أو الإفتاء ، وكان هذا يتم بعد أن يقرأ الطالب على عدة أساتذة عدداً من الكتب ، لكل أستاذ كتاب فى فرعه وتخصصه .

ولم يكن الطلبة يدفعون أجوراً نظير تعلمهم فى المساجد بل كانت ترتب لهم ولأساتذتهم غالباً أرزاق وأعطية تكفى للإنفاق عليهم فى حياتهم الخاصة ، وقد سبق الإشارة إلى ما يدره أهل اليسر على هؤلاء الطلبة فى المواسم والأعياد

---

(١) خطاب عطية على : المرجع الأسبق ، ص ١٣٤ - ١٣٥

وغيرها ، ولعل هذا الأمن الاقتصادى كان حافزاً للطلاب على التعلم سواء من أهل مصر أو من الأمصار الإسلامية . كما شجع على ذلك مكانة العلماء الذين كانوا يعلمون فى الجوامع والمساجد الكبيرة ، حتى قيل إن هؤلاء كانوا يستأذنون الخليفة فى القيام بالتدريس ، بل إن الخلفاء أنفسهم كثيراً ما عينوا أساتذة بالجامع الأزهر .

خامساً : دار الحكمة : ويمكن القول إن دار الحكمة نافست الجامع الأزهر وإن لم يكتب لها البقاء كما هو الحال مع الأزهر ، ودار العلم أو دار الحكمة مكتبة وجامعة حوت الكتب القيمة الكثيرة فى فروع المعرفة المختلفة وعقدت بها الحلقات الدينية والأدبية والعلمية ، وجلس فيها المنجمون والفلاسفة والأطباء والفقهاء واللسانيون. وهى بذلك قد جمعت بين المكتبات ودور العلم ، وفاقت الأزهر فيما علمته من علوم عقلية ، فقد كان الطلبة بها يتلقون إلى جانب علوم آل البيت وفقه الشيعة الكثير من علوم اللغة والفلك والطب والرياضة والتنجيم والفلسفة والمنطق . ويمكن القول بأن دار الحكمة كانت معهداً لتعليم الطب والمنطق والفلسفة ، وقد جذبت إليها الدارسين من مصر وغيرها بعد أن ذاع صيتها وعرف عنها البحث الحر . وقد قضى صلاح الدين الأيوبى عليها .